نسخة PDF



# كشكول الكشكول

صفحات من حياة الدكتور حسن ظاظا

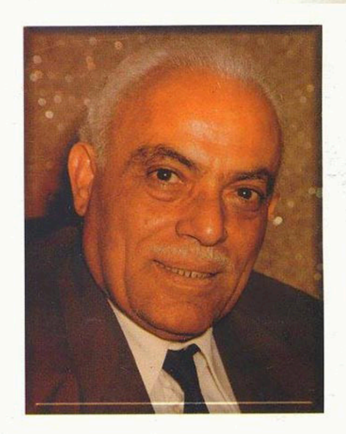
سجلها : راضي جودة

النسـخة الورقيـة مـن هـذا الكتـاب طبعـت طبعتهـا الأولى عـام ٢٠٠١ ، بمطابـع الشـنهابي ، وبعـد أن خفـت لوعـة الفقـد قليـلا والشـعور بالوحـدة والحاجـة لسـماع صـوت الدكتـور ظاظـا ونصائحـه ودروسـه ومشـاعر الأبـوة الفياضـة ، وجـاء الكتـاب لتخفيـف العالـق مـن الم اليتـم الواضـح في توتـري وبعـض الإنفعـالات غـير المقصـودة ، واليـوم وبعـد مـرور عـشرون عامـاً وإعـادة قـراءة الكتـاب في هـدوء تلمسـت بعـض الأخطـاء اللغويـة مـن اسـتعجالي للكتـاب وقتئـذ ، وفكـرت في عمـل نسـخة الكترونيـة تقـدم للدارسـين والأصدقـاء وعشـاق هـذا العـالم الموسـوعي والمفكـر الكبير ، نسـخة تـزدان بذكـراه العاطـرة ووفـاءاً وعرفانـاً بجميـل دعمـه وتشـجيعه ومحبتـه لتلميـذ تعلـق بـه وبعلمـه الغزيـر ليرتـوي مـن نبعـه الفيـاض .

رحـم اللـه العـالم الجليـل والأب الفاضـل ، الأسـتاذ الدكتـور حسـن محمـد توفيـق ظاظـا ابـو مالـك وزينب ، وأبي الروحـي .

راضي جودة ـ الإسكندرية
شهر ديسمبر٢٠٢٠م

# كشكول الكشكول



## صفحات من حياة الدكتور/ حسن ظاظا

سجلها: راضي جودة

# كشكول الكشكول

## صفحات من حياة الدكتور

## حسن ظاظا

سجلها

راضي جودة

اسم الكتاب : كشكول الكشكول
اسم المؤلف : راضي جودة
رقم الايداع بدار الكتب والوثائق المصرية : ١٣٢٧٥/٢٠٠١
الترقيم الدولي ٩٧٧-١٧-٠٣٠٩-٩ I.S.B.N
الطبعة : الأولى ٢٠٠١



Email: radigouda@gmail.com
radigouda@yahoo.com

# تمهيد

الحيـاة تتكامـل عناصرهـا بمـدى التكيـف معهـا بحلوهـا ومرهـا، وبعـض المتغـيرات تـأتي مـن التـواؤم والتآلـف مـع المعطيـات صحيـح أن هنـاك فروقـاً كثـيرة بـين مستويات وطبقـات وحـدة هـذا التناغـم ـ إن صح التعبير ـ ولكـن تكمـن رغبـة الإنسـان وراء حاجاتـه وانحيـازه لتلـك الرغبـة التـي هـي أصلاً حاجـة ماسـة لـه ، لكـن عليـه أيضـاً ألا ينـسى حاجـات الآخريـن وأفكارهـم .. والاسـتمتاع بالحيـاة ليـس معنـاه مصـادرة حـق الآخريـن مـن تلـك المتعـة .

لا بد أن يكون لك موقف .. مع .. أو ضد .

هكـذا تعلمـت مـن هـذا الباحـث الأكاديمـي الـذي عرفتـه قاعـات المحـاضرات في كثـير مـن الجامعـات العربيـة والأجنبيـة ، لم أكـن في صفـوف طلابـه ، وإنمـا كنـت صديقـا لصيقـاً بـه .. كنـت أجلـس إليـه ، وأراه بـلا ـ رتـوش ـ وأعـرف مـن هـو .

ولكـن خـلال تلـك العبـارات انتقـل بهـا معـك في صفحـات مـن حياتـه ، لا أعمـل عـلى إبـراز شيء أو إخفـاء آخـر .. فقـد علمنـي الحياديـة ، صحيـح أنـه خصنـي بهـذا الكـم مـن المصارحـة ولم يبـق شيء يخفيـه عنـي . إلا أننـي عجـزت عـن نقـل أنفـاس عباراتـه وآلامـه وأشـواقه الإنسـانية التـي سـكنت داخلـه ، فهـو إنسـان يعشـق الإنسـان .

كثـيرون هـم مـن أجـادوا التحـدث عـن الدكتـور ظاظـا .. علـماً وفكـراً ونبوغـاً، ولكنهـم لم يتحسسـوا مواضـع الألم في عقـل هـذا الإنسـان وقلبـه الـذي ظـل يجاهـد حتـى آخـر لحظـة مـن أجـل الإنسـان .

كان صاحب قضية وصاحب أسلوب لذلك يقول : انني القي بالكلمة هنا وهناك ، وأعرف أنها سوف تنمو ولكن لا يعنيني أن يقولوا هو من قال .. وإنما أريدهم أن يعملوا ويفكروا ويضيفوا .. وما من مرة أجادله إلا ويقول لي نحن قوم لا نقرأ .. نحن قوم بلا ذاكرة .

هل فعلا سوف تخوننا الذاكرة وننسى هذا الإنسان الذي عشق الإنسان .

رحمة الله عليك يا أبا مالك ..

رحمة الله عليك يا أبا زينب ..

وشكرا لكل معروف قدمته لي كأستاذ ودليل لأحد محبيك كي ؛ يتعرف على وقع الكلمات ووقع الخطوات .

# مقدمة

عـدد مهـول مـن الكتـب التـي تنافـس مؤلفوهـا مـن أجـل أن يحصلـوا عـلى مقدمـة لتلـك الكتـب بقلـم ظاظـا، ويمكننـي أن أجْمـل عناويـن الكثـير مـن تلـك المطبوعـات والمؤلفـات .. كان يجامـل في البعـض منهـا عـلى وجـه الخصـوص للشـباب الذيـن هـم في بدايـة مشـوارهم مـع النـشر والتوزيـع ، وكثـيراً مـا كان يجامـل أيضـا بعـض الأثريـاء ممـن حاولـوا تجميـل بيوتهـم بمؤلفـات لهـم لا تعـود بـأي فائـدة لا للقـاريء ولا الباحـث ، وإنمـا المسـتفيد الأول فيهـا هـو دور النـشر والوراقـين .

ومـن الممكـن أن يكـون ذلـك مأخـذاً عـلى الرجـل ، ولكـن قبـل أن تلقـي بالحكـم تريـث قليـلاً ، وعليـك أن تشـعر بمـدى إلحـاح هـؤلاء الثقـلاء الخفيفـي العقـل ، ومطاردتهـم للرجـل آنـاء الليـل وأطـراف النهـار وحـين السـحر ، وأقسـم ان بعضهـم كان يوقظـه مـن نومـه ليسـأله عـن العملـة في إيـران وكـم تسـاوي بالريـال ، وآخـر يسـأله بإلحـاح عـن شـخص في التاريـخ وتكـون الإجابـة لصالـح فـزورة مـن الفوازيـر؛ كـما أننـي حـضرت أكـثر مـن مـرة مجادلـة طويلـة لشـخص مـن الأشـخاص ، وكان يـدون الحديـث حرفـاً حرفـاً ، لا لـشيء وإنمـا لأنه تصـدى لموضـوع دون علـم منـه وأراد أن يبرهـن بـأن لديـه المعلومـة الكاملـة لكـن بوصلـة التفكـير لديـه تتجـه إلى ظاظـا ، هـم قـوم لا يملـون ولا يعرفـون لليـأس طريقـاً ، وكـم عـانى منهـم .

هنـاك فريـق آخـر يسـتحق فعـلا أن يفخـر بـأن ظاظـا اسـتطاع أن يجـد مـن الوقـت كي يقـرأ مـا يكتبـه ، ومـن هـؤلاء المحظوظـين قـوم

كثيرون ، ولكن هل يحتفظون في قلوبهم تلك المعاني والإضاءات التي حاول أن يعكسها على كتاباتهم ؟ اللهم عسى .

ربما تمكن أحد الباحثين لفكر هذا العالم من معرفة بعض التفاصيل الإضافية والوقوف على أهميتها ، لأنه إذا كانت بعض الأحداث قد غابت عن هذا الكتاب فإن المجال رحبٌ لتناول دقائق الأمور على شمولها ، وتلك مهمة الباحثين ، وإنما في كتاب هذا أتعرض لما سمح لي الوقت بالإطلاع عليه من قريب جداً على الجوانب الإنسانية ، وربما غابت بعض أحداث داخل قاعات المحاضرات على سبيل المثال ، وهذا الشأن لا يعنيني بقدر ما هو مهم للباحثين والنقاد ، لكن هناك من تلك الأحداث ما أظن أنه غاب عن البعض ، خاصة عندما يعود الرجل إلى بيته بعد عناء الفكر والحوار ، أو حتى الاستعداد لهذا الفكر أو الحوار .

وأما عن تلك الأوراق فقد استأذنته على حياء مني أن يكتب مقدمة لهذا العمل الذي هو منه ومن أفكاره وذكرياته ، وكنت أعتقد حياته لا أفكاره ، ميلاده لا معاناته ، لقد أعادني بتلك المقدمة إلى الرجل الفكر ، وفكر الرجل وانه عقل يمشي على قدمين ، ويحترم العقول ويقدم لها خلاصة تجاربه ، وخلاصة رأيه دونما تعالٍ أو كبرياء

وفي الصفحة القادمة هاهي المقدمة التي أملاها لي حرفاً حرفاً.

وسلاماً على المخلصين .

**راضي جودة**

**يونيو ٢٠٠٠**

# تصدير بقلم الدكتور حسن ظاظا

## اليهود

اليهـودي كان مخصصـاً للاضطهـاد مـن جميـع أمـم العـالم لتعصبـه وإدخالـه لكثـير مـن المحرمـات في دينـه ، ثـم وجـد الحـل الأمثـل في التحلـل مـن هـذه المحرمـات كلهـا ، فظهـر اليهـودي الـذي يتمسـك بعلمانيـة لا يبطنهـا إيمـان ، وظهـر اليهـودي المـدروش الـذي يقـرأ في الكتـاب ـ أي كتـاب ـ ويـرى أن كل كلمـة فيـه تحتـوي عـلى إشـارة مبهمـة أو علامـة ، لذلـك يلهـج أمثالـه بكلمـة (سيمان) بمعنـى دلالـة أو علامـة ، وفي كل هـذا الـركام مـن الخرافـات والفاسـير المسـتكرهة والإشـارات البعيـدة المسـتحيلة لا يعـرف اليهـودي عـلى أي رجـل يقـف ؟ ، أيقـف عـلى العقلانيـة أم يقـف عـلى التأويـل المغـرق في الخيـال ، أم يقـف عـلى نـوع مـن إيمـان اليـأس ؟ كأنمـا قـال لنفسـه الدنيـا مليئـة بإيمـان العجائـز .. و بالتـالي تكـون عاقبتنـا نحـن اليهـود مريحـة جـداً لأنهـا تقبـل كل شيء وتؤمـن بـكل شيء ماديـاً ومعنويـاً ، فمثـل هـذا اليهـودي يؤمـن بـأن جميـع شـعوب الأرض خـدم لليهـود .. أليسـوا يسـيطرون عـلى المـال والأعـمال ، وعـلى الاختراعـات وعـلى جميـع أنـواع الحضـارات ؟

مثـل هـذا يمكن أن نسـميه اليهـودي المتهـوس ، وهناك آخـرون يعلنون الكفـر بـكل شيء إلا المحسـوس المـادي المـرئي بالعـين المجـردة والـذي يطلـب البرهـان العقـلي عـلى كل شيء ، حتـى سرعـة جريـان الـدم في

العـروق وسرعـة الفكـرة التـي تخطـر في أي عقل ، سـليم أم عليـل ، وأي ممكـن في افتراضاتـه ممكـن أم مسـتحيل ، لذلـك بقرائتنـا في التلمـود يبـدو لنـا كل شيء جائـز الوقـوع حتـى الـذي يرفضـه العقـل والمنطـق والعـادة والتقاليـد كل هـذا يحـال إلى مخـزن الغيبيـات التـي لايمكـن أن تعلـل أو تحـس أو تـروي قصصهـا ، وهـذه القصـص تـروى إلى مـا لا نهايـة في التلمـود وفي التـوراة وفي الزوهـر وفي البهـير وفي كل التهويمـات التـي يلوكهـا مجانـين اليهـود ، وكاتـب يهـودي بريطـاني نـشر سلسـلة مـن القصـص بعنـوان (مجانـين اللـه) ، لأنـه يـرى الحـد الفاصـل بـين العقـل والجنـون غـير موجـود ، فكيـف تسـتطيع تظفـر بحقيقـة مـن تفكـير كهـذا ثـم هـذا التفكـير لا يمكـن أن يـؤدي إلى نتيجـة ، وقيـل في الدعايـة للصهيونيـة كتـاب ضخـم عنوانـه : (الإنسـان والمسـتوطنة الزراعيـة) وزيـن المؤلـف أو الـذي اختـار هـذه الموضوعـات ودبجهـا بزخـارف كلاميـة تظهـر أن كل شيء جليـل أو دقيـق إنمـا يظهـر لنـا بصفـة وحـي نبـوي يجبرنـا عـلى الإيمـان بالمسـتحيل .

مثـل المناهـج في التفكـير تدفعنـا إلى الترحـم عـلى أرسـطو وابـن رشـد والغـزالي وجـون سـتيوارت مـل والإيجابيـة في التفكـير المعـاصر ، وتـترك الباحـث في هـذا الخضـم المتلاطـم مترحـماً عـلى الفيلسـوف الطيـب الذكـر ديـكارت .

سـنرى في الـتراث الإسرائيـلي بتهويماتـه وخيالاتـه وعنعناتـه العجـب العجـاب الـذي يـدور حـول نقطـة هـي أن إسرائيـل مركـز الدائـرة ، وهـي الباعـث الأسـاسي لخلـق العـالم ، فـإرادة اللـه سـبحانه فيـما يبـدو ، ونسـتغفره مـن ذلـك كانـت تبحـث عـن السـبب الرئيـسي لهـذه الدنيـا المملـوءة بالبـشر عـلى اختـلاف أجناسـهم وألوانهـم ولغاتهـم .

وعصبيـة اليهـودي تجعـل اليهـود في العـالم هـم منبـع الهدايـة الربانيـة والإلهـام الـذي لا تشـوبه شـائبة وهـو بطبيعـة الحـال كلام فـارغ لأن النـاس جميعـاً عبـاد اللـه لا تفـرق بينهـم إلا بالإيمـان والعمـل الصالـح وبالتـالي لا يكـون خلـق آدم منطقيـاً للقـدرة الإلهيـة فقـط بـل لمجـرد جنـس مـن الأجنـاس البشريـة التـي تدرجت في الرقـي وفي سـلم التطور حتـى عمـرت هـذا العـالم بمـا فيـه مـن عقائـد وأديـان واختراعـات ومدهشـات ، وبالتـالي لا يمكـن ادعـاء أن خلـق آدم كان مجـرد مسـودة لطبعـة منقحـة هـم بنـو إسرائيـل ، فهـذا التطـور يختـاج إلى زمـن وإلى أجيـال مـن الأنبيـاء والرسـل والدعـاة والفلاسـفة والأخلاقيـين ويكـون مـن الظلـم التحيـز لاعتبـار فصيـل مـن النـاس هـو أفضـل هـذه الفضائـل ، وهـذا اعتـداء صـارخ عـلى عدالـة اللـه سـبحانه وتعـالى في بنـي الإنسـان .

لـو تركنـا هـذا الجانـب الاعتقـادي وعدنـا إلى شـخصية المسـيح وهـي شـخصية ظلـت تداعـب الخيـال اليهـودي إلى مجـيء المسـيح المنتظـر ثـم تآمرهـم عليـه ، يقـول المـؤرخ اليهـودي المعـاصر لزمـن المسـيح : [ أنـه في كل قريـة يهوديـة كان يظهـر مسـحاء عديـدون قُتلـوا وصُلبـوا ] هـذا يسـيفوس المـؤرخ اليهـودي الـذي كتـب بقلمـه ـ مـا كانـت الشـمس تغـرب في آخـر النهـار عـلى قريـة أو محلـة مـن مسـتوطنات يهـوذا إلا وأنزلـوا منهـا عنـد غـروب الشـمس مقتـولاً أو مصلوبـاً مـن اليهـود ، وكان المسـيح عليـه السـلام مـن أبـرز الدعـاة إلى اللـه الذيـن اكتسـبوا عـداوة أولئـك اليهـود بينـما أطـراف الأرض مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا كانـت تعـج بالمصلحـين والمفكريـن في مـا وراء الطبيعـة مـن بـوذا وبراهـما ، وكونفوشـيوس ، وزورادوشـت ، ومـاني ، ومـزلاك بصرف

النظر عن سقراط وافلاطون وأرسطو وأجيال كثيرة من المؤمنين والأتباع ، وركز أولئك الناس على الإنسان بما هو إنسان .. وليس على اليهودي بما هو يهودي ، فهذه كانت نقطة يجب علينا أن نشير إليها إلى أن خلق آدم كان مركز الدائرة لعمران العالم ولم يكن موسى وهارون ولا المسيح وحده ، بل كانت الإنسانية كلها تتحسس الطريق إلى الله كل بحسب ذوقه ومزاجه وموروثاته ، وبالتالي لا نتردد في أن نعتبر أن بني إسرائيل ليسوا علة العلل التي من أجلها خلق الله العالم ، ومن هنا تدخل العصبية الصهيونية في هذه الشبهات ، وقد كتب فيها قوم يوصفون بأنهم دعاة إلى الموروث اليهودي ضمن محاولة جريئة في تكميم الأفواه وفرض ديكتاتورية عالمية يكون الرب قيها ـ من وجهة نظرهم ـ هو أحكم الحاكمين في حين أن المفكرين في الخالق جل شأنه كانوا يقولون بفكرة الأدوار التي كانت فيها رسالة لكل البشر وهذا أمر ضروري لتنظيم هذا الكوكب الذي نعيش عليه ونفعه نحو التقدم والرقي وصناعة الحضارات الخاصة التي تعتز بها الإنسانية جمعاء .

وبعد

فيخيل إلى بعد عشرات السنين من معايشة الفكر الديني العالمي من البحث في أصل الإنسان إلى أصول الشرائع والأديان إلى أصول النظم السياسية والإجتماعية المختلفة ، إن الإنسان سيظل إلى آخر الزمان يشق طريقه بآذان لا تلقي بالاً للأعراق الإنسانية التي تبحث عن المفاخر والمزايا وتتابع الجري وراء ما ينفع الناس ، وفي هذه الحالة نجد أن أعدل الموازين هو أمثلها وأصلحها للجنس

البـشري كلـه وليـس لمجموعـة صغـيرة جـداً مـن البـشر مثـل بنـي إسرائيـل ، فالتطـور بـدأ منـذ العصـور الأولى لتكـون هـذه الأرض وهـذا الإنسـان ، وماتـزال المسـيرة مسـتمرة إلى الآن وإلى أن يقـضي اللـه أمـراً كان مفعـولاً .

# سندباد المعرفة

كانت رحلات سندباد في ألف ليلة وليلة بمثابة ارتحال دائم صوب المجهول ، في هذا الارتحال اكتشاف ومغامرة ، وبحث أبدي عما يشحذ الفكر ويؤنس النفس .

.. في هذا المعنى نفسه كانت تجارب المفكر الراحل د. حسن ظاظا ، تجاربه هي رحلات دائبة للبحث عن اليقين ، ومراودة الحقيقة . فحسن ظاظا من طراز المفكرين الموسوعيين الذي يتقصون الحقيقة في مظانها، لقد أمضى حياته راكضاً صوب الكلمة التي تقول وتكشف ، لا التي تصف وتسرد ، د. ظاظا في جميع أعماله يحرص على هذا النقاء المعرفي الخالص الذي يتجوهر في واقعة لغوية أو تاريخية أو سياسية ، إنه يحدق في وهج الحقيقة ليقدم شموسها لقرائه .

لقد كانت تجاربه السندبادية حافلة بالمغامرة والكشف ، ولعل مغامرته بدراسة العبرية في جامعة القدس في الأربعينات في أوج الصراع العربي الصهيوني وحصوله على درجة الماجستير في الأدب العبري من الجامعة العبرية بالقدس منتصف الأربعينات ، لعل هذه المغامرة تنم بشكل مبدئي عن عشقه للمعرفة ، وتطلعه لقراءة الآخر (العدو) في وقت مبكر ، أدى إلى فهمه العميق ـ الذي لم تستغله حكوماتنا الرشيدة ـ للفكر الصهيوني بأوجهه التدميرية ، إذ ظل د. ظاظا بعيداً عن المعارك والمفاوضات التي حدثت بعد ذلك مع أقطاب العدو الإسرائيلي ، على الرغم من تَمَثّله لكل ما

جاء بـه اليهـود قديمـاً وحديثـاً .

لقـد أنتـج د. ظاظـا عـدداً وفـيراً مـن المؤلفـات دارت مجالاتهـا بالأخـص حـول قـراءة الفكـر اليهـودي ، والشـخصية الإسرائيليـة ، وحـول اللسـان والإنسـان ، وكلام العـرب ، والسـاميين ولغاتهـم .

ولـه كتابـات كثـيرة في عنـوان (الكشـكول) وعـي عبـارة عـن مقـالات أسـبوعية نـشرت عـلى مـدار عشريـن عامـاً بجريـدة (الريـاض) السـعودية ، صـدر منهـا كتابـان ـ حتـى الآن ـ ، وهـي تـدور حـول مجـالات معرفيـة متعـددة .

وقـد جعـل ـ مسـتلهماً فـن المقامـة العربيـة ـ بطـل (كشـكوله) شـخصية اسـمها (عبـد السـلام) يحـاوره ويجادلـة ويكاشـفه ، ويرتحـل معـه إلى مواقـف وتجـارب مختلفـة تنـم عـن تراثـه الثقـافي العميـق البـارز .

في هـذا الكتـاب يقـدم الصديـق راضي جـودة خلاصـة تجربـة و (صحبـة) مـع د. حسـن ظاظـا اسـتمرت مـدة الأربـع سـنوات الأخـيرة مـن حيـاة د. ظاظـا .. لقـد كانـت صحبـة عبقريـة ، نفـذ فيهـا راضي جـودة إلى أعـماق د. ظاظـا ، وإلى أنـوار نفسـه ، وكان الحـكيْ العبقـري أيضـا للدكتـور ظاظـا مجـالاً خصبـاً سـجله راضي جـودة بإتقـان ، وحفـظ هـذه الأحاديـث التلقائيـة ذات الخـبرة الشـديدة بمعايشـة الواقـع والحيـاة .

ولقـد تحاورنـا أنـا والصديـق راضي جـودة كثـيرا حـول الوضـع اللغـوي لهـذه الأحاديـث الظاظويـة التـي روى فيهـا أطرافـاً متجاذبـة مـن حياتـه ولقـد أراد أن يُبقـى عـلى لغـة أحاديـث د. ظاظـا بـكل مسـتوياتها الفصيحـة منهـا والعاميـة ، عـلى أن توضـع الكلـمات العاميـة بـين أقـواس ، ذلـك لأن تحويـل العاميـة إلى فصحـى يؤثـر في تعبيراتهـا ويفقدهـا

حيويتهـا ووهجهـا .

إن الكتـاب حافـل بهـذه التجـارب والمغامـرات، إنـه كتـاب حيـاة .. كتـاب سياسـة وفكـر وشـعر وأدب وتاريـخ وثقافـة .

إن شـخصية د. ظاظـا شـخصية عبقريـة ، وإن لكلماتـه ـ كـما سـنرى في الكتـاب ـ ارتحـالات دائبـة صـوب الحقيقـة ، سـوف تبقـى عـلى مـدار العصـور ، جوهـراً مضيئـاً لهـذا البحـث المعـرفي الـذي ينهـض بـه الإنسـان سـعياً لتنويـر الـروح، وابتـكار العـالم .

وإننـي عـلى يقـين أن القـارىء سيشـاركني هـذه الرؤيـة بعـد قراءتـه الكتـاب ، وسـيقف كثـيراً متأمـلاً في كلماتـه ، ومحدقـاً في سـطوره ، ويكفـي أن الكتـاب يضـع كثـيراً مـن الأسـئلة صـوب عتبـات اليقـين .

**عبد الله السمطي**

**الرياض يوليو ١٩٩٩م**

# صاحب المقام الرفيع

كنت أستمع إلى أحاديث الدكتور ظاظا من خلال البرامج الإذاعية ، وأتابع بعض أخباره التي تنقلها وسائل الإعلام بين فترة وأخرى ، فالرجل ولا شك نجم من نجوم الفكر من نجوم الفكر والفن والأدب ولم يسبق لي أن التقيتُ به إلا يوم اللقاء الأول في بهو فندق قصر الرياض ، وقد احتشد جمع غفير من الأدباء والمفكرين وصناع الكلمة ضمهم مهرجان الجنادرية الحادي عشر ، ذلك المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي يقوم باحتضانه ورعايته الحرس الوطني السعودي كواحد من منارات الفن والفكر على أرض الجزيرة العربية ، مثلما يعقد مهرجان المربد وجرش وقرطاج وغيرها ، وكنت أظنه أحد ضيوف المهرجان ، وقد أتى من بعيد ، ولم أكن أدري أنه يقيم على بعد ميل ونصف من هذا المكان ، وقفت أنظر إليه وكلي رغبة باقتحام عالمه ، ولأن صورته مطبوعة في عقلي ولا أبالغ إذا قلت بأنني كنت مدفوعاً إلى معرفته دفعاً لا أجد له تفسيراً إلى الآن .

وكان اللقاء الثاني في صالة عرض للفنون التشكيلية وبصحبته الفنان التشكيلي السعودي ناصر الموسى وتقدمت إليه محيياً وداعياً له بطول العمر ، وكان اللقاء خاطفاً ، ولكن بقي أثره في نفسي ، وفي تراتبية يومية انشغلت مرة أخرى بأعمالي ، غير أمنية تمنيتها أن أراه وأجلس إليه ، ونقلت رغبتي هذه إلى الدكتور رستم عشري الذي جمعتني به صالات ومعارض الفنون كثيرا ، ولم يمانع في تحقيق رغبتي الملحة غير أنني يجب أن أترك له الوقت كي يحاول

تحديد موعد .. ثم واتتني الفرصة السانحة عندما طلب الصديق نبيل الحداد توصيل رسالة للدكتور ظاظا ومدون بها العنوان ، ولم أكن أحتاج لأكثر من ذلك .

وهنا ودون أن أسهب في تفاصيل حرارة اللقاء في منزله ، فهذا الشيخ الوقور يفيض أدباً وهو يحاول تقديم الشاي أو القهوة ، للحق أقول إنه منذ الجلسة الأولى اختصر مسافات كثيرة من تلك التي تفصل بين جيل وجيل وسفح وقمة ، وهو مع هذا لا يصطدم بك أبداً في أي حديث ، وهو طراز فريد من العلماء تشعر بأنه قريب لك ويجمعك معه رباط اثيري غير ملموس ، وكأن الأقدار قد وضعت كلاً منكما في طريق الآخر ، وسيبهرك جدا مهما حاولت أن تتشاغل عنه .

تحدث معي عن سيرة واحد من رجال مصر العظماء .. ربما يغفل عنه الإعلام ، ولم يسلط عليه الضوء على حد علمي ، هو محمود باشا سليمان .. من ساحل سليم بأسيوط ، من مآثره أنه عرض عليه عرش مصر لكنه رفض أن يقبل عرشاً تحرسه حراب الإنجليز ، وابنه هو صاحب المقام الرفيع محمد باشا محمود ، الذي كان عضواً لمجلس الوصايا على العرش .

والذي يحسب له موقف رائع أيضاً ، عندما اشتكى له أحد المصريين ممن يهتمون بتربية الخيول ذات السلالات الجيدة التي تستخدم في السباقات ، إلا أن المسؤول عن نادي الفروسية رفض التعامل معه على اعتبار أنه واحد من الفلاحين المصريين ، وتم عرض القضية على الرأي العام وكان رد الفعل عنيفاً أمام الشكوى المقدمة ضد الأمير سليمان داود ـ من سلالة محمد علي باشا ،

وابـن عـم الملـك ـ ، وعندمـا أراد الملـك فـاروق التدخـل مـن أجـل وقـف هـذه الحملـة مـا كان مـن محمـد محمـود سـوى التصـدي لهـم ، والوقـوف ذلـك الموقـف الصلـب قائـلا : إننـي مـن هـؤلاء الفلاحـون الذيـن لا تحبـون التعامـل معهـم ، ثـم قـال مخاطبـاً الملـك فـاروق : لا تظـن أن عرشـك هـذا يهمنـي ، فقـد تـم عرضـه عـلى أبي ورفضـه . مـن هنـا كان الرجـل يثـير اهتمامـي غـير المحـدود لمـا يحمـل في ذاكرته مـن مخـزون كبـير حـول فـترة مـن أهـم فـترات تاريـخ مـصر التـي قـد يغفـل عنهـا جيـل يتلمـس الصـدق ويبحـث عنـه مـن خـلال مـا يعـرض أمامـه مـن كتابـات ، وأفـكار وأحاديـث لا تخلـو مـن الهـوى . وطالـت فـترات الحـكي بـين تنـاول الشـاي والقهـوة وحيـث يحلـو الـكلام ، وعـن حياتـه قـال لي :

عندمـا حصلـت عـلى الثانويـة العامـة كنـت الأول عـلى المديريـة التعليميـة بالقاهـرة ، والرابـع عـشر في الترتيـب العـام للقطـر المـصري ، وفي ذلـك الوقـت كان الوالـد متـوفي ، والأسرة تنتظـر حصـولي عـلى هـذه الشـهادة مـن أجـل الوظيفـة .

وكانـت الوظيفـة بحـوالي سـتة جنيهـات ، وهـي مبلغـاً محترمـاً قياسـاً عـلى جملـة الأسـعار في ذلـك الزمـان حيـث إيجـار الشـقة الجيـدة في حـدود أربعـة ريـالات ، وأمـا رطـل اللحمـة وهـو أكـثر مـن نصـف كيلـو بحـوالي خمسـة تعريفـة (خمسـة وعـشرون مليـما) ، وهـي مـن النـوع الممتـاز يعنـي قطعـة واحـدة وبـدون عظـم أو (شـغت) عـروق ودهـون .

المهـم أنهـم كانـوا يبحثـون لي عـن عمـل ، وارسـلتني والـدتي إلى خـال لهـا هـو عبـد القـادر بـك مختـار ، وكان قـد شـغل وظيفـة محافـظ ،

وأكثر من وظيفة مهمة وآخرها وكيل حزب الأحرار الدستوريين ، وهذا الحزب كان العدو اللدود لحزب الوفد ، أعطوني عنوان هذا الخال .. ووصلت إلى فيلا جميلة وجدت هناك رجلا يرتدي بيجامة وفوقها جاكيت وطاقية بيضاء من القطن الأبيض كالتي يستخدمها الصيادون بالإسكندرية ، وكان مشغول (بالجنينة) الحديقة ، ناديته : يا عم يا جنايني ، فلما التفت لي سألته عن عبد القادر بك مختار ، فسألني من أكون ؟ وماذا أريد ؟ إلى آخر هذه الأسئلة فما كان مني إلا أن قلت : شيء عجيب ، وماشأنك أنت ؟ ولماذا كل هذه الأسئلة ؟! فقال الرجل بمنتهى الهدوء : حتى إذا سألني عبد القادر بك أستطيع الإجابة .

فقلت له : أنا أبن أخته ، فأشار الرجل عليّ بالدخول حتى يعطيه خبراً بذلك ، وكان هو نفسه عبد القادر بك ، وقام باستبدال ملابسه إلى ملابس افرنجية واستقبلني بشيء من البشاشة والترحاب وسألني عما أريد ، فلما أوضحت له رغبتي في الحصول على عمل ، قال لي : لعلك جئت في الوقت غير المناسب لأن الحكومة كلها للوفد ومن الصغب أن يقدموا لي خدمة ، ودعنا نسأل يوسف الجندي لعله يساعد في ذلك .

وبعد تقديم المشروبات توجهت بصحبة هذا الخال بسيارته وسائقه إلى إحدى المديريات ، وتم الترحيب به على أحسن ما يكون ، وأجابه يوسف الجندي على طلبه بأن هذا شيء بسيط :

ـ كان ممكن سعادتك تتصل بالتليفون ونحن نقوم بالواجب .. وشيء من هذا القبيل ، المهم أنه توجه بالحديث إلى صاحبك ، وسألني : أنت اسمك إيه ياشاطر ؟

ـ حسن ظاظا .

ـ ساكن فين ؟

ـ ...........

ـ ماذا معك من شهادات ؟

ـ معي ثانوية واسمي طالع في جرنال الأهرام من العشرين الأوائل على القطر كله ، وأنا الأول على مديرية القاهرة .

ـ (طيب .. أنا خلاص كتبت البيانات ، وسوف أتصل بك في أقرب وقت ممكن).

فما كان من عبد القادر بك مختار إلا أن قام وهو في غاية التذمر والغيظ حتى أنني استغربت ذلك .. وقلت له :

لقد استقبلنا الرجل على أحسن ما يكون وأخذ البيانات في ورقة عنده .

لكنه قال :

إنه لن يتصل عليك أبداً لأنه ببساطة شديدة لو أراد أن يحصل لك على وظيفة كان اتصل بمدير المستخدمين ، ويجد لك وظيفة في أي قسم بوليس وهي تتحمل العشرات الذين هم على مثل حالك .

كان كلامه معقولاً جداً ، ولما خرجنا من مبنى المديرية انتقل بي إلى حي عابدين ، وهناك خلف قصر عابدين رأيت فيلا جميلة دخلناها معا وكانت فيلا للشيخ مصطفى عبد الرازق ، وهو رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، وكان أيضاً وكيل الجامعة ، فلما عرف ترتيبي وتفوقي وجه حديثه لعبد القادر بك :

ـ (يعني ياسي عبد القادر ناخد الأواخر من الثانوية وبالواسطة

وده الأول وميدخلــش الجامعــة ..!) .
طبعــا الجامعــة حلــم لم يكــن يــراودني فإننــي كنــت أبحــث عــن الوظيفــة ، وحتــى حديثــي هــذا الــذي كان يــدور بخلــدي نقلــه الخــال مســتكملاً حديثــه :
ـ (معلش أصل أهله محتاجين للوظيفة .. والولد يتيم) .
وتوجه الشيخ بالحديث ناحيتي :
ـ هل ترغب في الدخول للجامعة ؟
ـ دخول الجامعة يحتاج إلى مصاريف ، وأنا أبحث عن وظيفة .
ـ ســوف تدخــل الجامعــة وتحصــل عــلى الوظيفــة ، فــما رأيــك ، ثــم مــا هــو مســتواك في الإنجليــزي ؟
ـ لا بأس .
ـ إذن املأ هذه الاستمارة .
وناولنــي اســتمارة الالتحــاق بالجامعــة فقمــت بتعبئتهــا، لكــن خــلال البيانــات كانــت توجــد فقــرة يكتبهــا ولي الأمــر ، فتوقفــت عــن الكتابــة معلــلا ذلــك بأنــه يجــب الذهــاب إلى خــالي أخــو الوالــدة كي يــدون هــذه الفقــرة ، فقــال الشــيخ :
ـ هل لديك مانع أن أكون أنا ولي أمرك ؟
ووقــع الشــيخ مصطفــى عبــد الــرازق عــلى هــذه الاســتمارة ، وبقيــت في ملفــاتي بالجامعــة والشــهادات عــلى أنــه ولي أمــري، وكان لي الــشرف في هــذا .
ولا أنــسى لهــذا الشــيخ الجليــل موقفــاً إنســانياً رأيتــه بنفــسي ، وكان ذلــك في اليــوم الأول للدراســة وكنــت جالــس بمكتبــه ، وجــاءه مســجل الجامعــة يقــول إن الســيد العميــد (د. طــه حســين) قــد رفــض الموافقــة

على إعفاء ثمانية طلاب من مصاريف الجامعة التي كانت عشرون جنيها في ذلك الوقت ، فما كان من الشيخ إلا أن كتب (شيك) بالمبلغ وأوصى الرجل ألا يخبر أحداً بهذا الأمر وخصوصاً الطلبة الذين تقدموا للإعفاءات ، ولم يكن سؤاله عن مستواي في اللغة الإنجليزية إلا لشيء كان في نفسه ولم أكن أدركه في حينه ، فقد أرسل بي إلى جريدة البلاغ وصاحبها ومديرها الأستاذ (عبد القادر حمزة) على أن يكون دوري هو القيام بترجمة بعض البلاغات والبرقيات التي ترد إلى الجريدة ، والتي هي في الغالب جزء كبير من مادتها .

المسؤول عن المطبعة كان دائم الصراخ للإسراع من أجل تصحيح البروفة ، وكسب الوقت للخروج بالجريدة قبل صدور جريدة المقطم وإلا لن نستطيع البيع ، وتلك كانت طبيعة الأمور في الجريدة التي كان زمام الأمر داخلها يدور بين الرجل في المطبعة التي لا أذكر اسمه الآن ، ومديرها الأستاذ حمزة ، وعندما تعرض الأستاذ حمزة لبعض المشاكل الصحية أوكل لابنه إدارة العمل غير أنه كان فظاً ، وينظر للناس وكأنهم حشرات ، والتعرض للأذى لم يخلُ منه أحد ، لدرجة أنني دخلت مكتبه أكثر من مرة للموافقة على طبع أحد الأخبار بعد التعليمات المشددة التي أصدرها بألا يمر أي خبر إلى المطبعة دون توقيع ـ محمد عبد القادر حمزة ـ ، وبما أني لا أريد سماع صراخ جماعة المطبعة دخلت إلى مكتبه أكثر من مرة لكنه عنفني وشتمني لكثرة ترددي فألقيت بالأوراق في وجهه وتركت العمل في البلاغ وذهبت إلى جريدة الأهرام .

## محمد السباعي محرر بالبلا

يقول د. ظاظا :

على فكرة كان يكتب افتتاحية (البلاغ) الأستاذ محمد السباعي والد الكاتب المعروف يوسف السباعي ، وبينه وبين المطبعة مناوشات ، وفي واحدة منها أنهم كانوا يستعجلونه للإنتهاء من الكلمة ، وفي كل مرة يقوا : (اصبروا شوية هو أنا بضغط على زرار يقوم يطلع الكلام!!) ، ثم كان توقيعه في نهاية الكلمة ـ محمد السباعي محرر بالبلاغ ـ ، وفي المطبعة أرادوا مضايقته فأسقطوا حرف الغين أكثر من مرة ، فيخرج توقيعه (محمد السباعي محرر بالبلا) ، وكان ـ رحمه الله ـ أستاذاً في دار العلوم ومتعاونا مع الجريدة ، المهم أنني عندما تركت البلاغ توجهت إلى الأهرام ، وكان رئيس تحريرها هو أنطون الجميل الذي سألني عن طبيعة عملي في البلاغ ، ومن خلال الحديث ولتوفر مترجمين لديهم وجد لي وظيفة في قسم التصحيح ، وكان زميلي هو الأستاذ عبد السلام العسكري الذي تأتي شخصيته في مقالاتي ـ الكشكول ـ في شخصية الشيخ عبد السلام .



## عباس العقاد يضرب المصحح

يقول د. ظاظا :

ومع اليوم الأول وجدت رجلاً كبير السن و(نازل ضرب) في مصحح المطبعة ، فعرفت أنه الأستاذ عباس العقاد وكان سبب هذه الملحمة أن المصحح قام بتغيير بعض الألفاظ عما كتبه الأستاذ العقاد ظناً منه أن ذلك أفضل في التناول ، ولكنه تناول ذلك العقاب الردعي ، وكان تدخلي على أساس القيام بتلك المهمة

مؤكداً للأستاذ عدم الوقوع في مثل هذا المأزق أو تكرار الخطأ مرة أخرى ، واستفسر مني عن أسمي ، وأين أعمل فلما عرف أنني طالب في كلية الآداب انشرح صدره وأمرهم بأن أتولى مراجعة مقالاته ، وفي طريقه لمغادرة المكان طلب مني زيارته ، وقد قمت بزيارته ثلاث أو أربع مرات ، وكان يجتمع عنده باستمرار كل من (طاهر الجبلاوي ، محمود حسن اسماعيل ، أنيس منصور ، وشاعر الجندول علي محمود طه ومجموعة أخرى) .

قلت وقد بلغ انفعالي مداه :

ـ (أنت رجل محظوظ يا دكتور) .

ـ أنا محظوظ جداً والدليل على هذا أنك تجد أن كلية الآداب التي كنت أدرس بها كان يدرسني فيها الدكتور طه حسين ـ أدب عربي ـ ، ومستر سكيف ـ إنجليزي ـ ، ومسيو مارينجو ـ فرنساوي ـ ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ـ فلسفة إسلامية ـ ، وأبو العلا عفيفي ـ فلسفة عامة ـ ، وسليمان حزين ـ جغرافيا ـ ، ورانت ، وهو الماني ـ قسم امتياز ـ ، وبول كراوس لفقه اللغة العربية ، وقد درست عته أيضا ـ العبري ـ ، وأما شخت فكان يدرس لنا ـ سورياني وتاريخ القرآن ـ ، وهوكرث والكونت دي جلارزا ـ لعلم الإجتماع ـ ، الأستاذ أحمد أمين ـ الفكر الإسلامي ـ ، والأستاذ لطفي السيد فهو طبعاً مدير الجامعة ، فما رأيك في هذه الباقة الرائعة ؟ ، أنا فعلا محظوظ فليس من الممكن أن تجد مثل هؤلاء الناس في كلية آداب في أي مكان مجتمعين ، ولقد دخلت الجامعة من باب الصدفة .

# محاولة اغتيال

يتميز قلم د. ظاظا بأنه سلاح مشرع في وجه الصهيونية وقد كان لهذا الجهاد الذي أمتد أكثر من خمسين سنة أثره البالغ عليه ، وكنت أسأله بين فترة وأخرى :

لماذا تحمل قضية فلسطين فوق رأسك ؟! وماذا فعلت لك القيادة في فلسطين ؟ فكانت الإجابة بنفس المستوى : أنا لا أريد شيئاً من الحكومات فهي لا تعنيني ، ولو كانت المسألة مسألة مناصب لكنت وافقت على منصب وكيل الوزارة أو رتبة اللواء التي عرضوها عليّ ، ولكن القضية بالنسبة لي هي قضية عدل وظلم ، فالقضية الفلسطينية قضية عادلة والفلسطينيون مظلومون مهما بدا من بعضهم ، وأما الصهاينة فهم فعلاً ـ ملاعين ـ والعنصرية تاج رؤوسهم .

سألته : ـ هل كانت هناك ثم مخاطر عليك لتبنيك تلك القضية ؟

فأجاب : لعلك تذكر أنني كنت أجلس كثيراً مع الإصلاحيين اليهود ، وحكيت لك عن لقائي بهم سواء في القدس ، أو في باريس ومن بينهم أصدقاء لي ، لكنني تعرضت فعلاً للموت المحقق ، ودعني أقص عليك هذا الموقف !



ـ كانت القدس في حالة (بلاك آوت) أي إظلام ودهان باللون الأزرق ، نتيجة للحرب العالمية بحيث لا يظهر أي ضوء خارج البيوت ، رغم أن طائرات الألمان استطاعت من خلال جزيرة كريت الوصول إلى تل أبيب في عز الظهر وقتل ٥٠٠ يهودي في عارة واحدة في بضع دقائق مما جعل تطبيق الـ ـ البلاك آوت ـ من الأمور التي لا

تهاون فيها ، وعند عودتي في ليلة من تلك الليالي المظلمة طعنني أحدهم بسكين أو خنجر في البطن ، ولم أتمكن من رؤيته لأنها حالة ظلام تام ، وعلى أغلب الظن كان صاحب الطعنة هو ـ جدعون فيجر ـ ثم لماذا ذهبت الظنون إليه ؟ أقول لك :

ـ كان جدعون طالباً في الجامعة العبرية ، ولكنه لم يكن منتظماً بالمعنى المتعارف عليه ، ولم يكن في كلية بعينها ، ثم كان تودده لي بشكل لافت للنظر رغم أنه لا تربطني به أي علاقة كان أعور ومن أصل ألماني !!! ، كما أن ـ جوت شتاين ـ وهو زميل ومن أصل ألماني أيضاً ، قد نبهني بأن هذا الشخص لا أمان له .

ـ نستطيع القول أن الطعن بالخنجر كانت محاولة للقتل العمد ، فما هي النتيجة لهذا الحادث ؟

ـ لقد تمت معالجة الجرح ، وانتهى الموضوع ، ولم يؤثر على أي وظيفة في الجسم ولم يبق من أثره إلا خط بسيط يكاد لا يرى ، ولكن هناك موت محقق فعلاً ، وذلك عندما استضافني النادي القومي الإسلامي في يافا ، وكانت يافا مدينة عربية للمسلمين ، كما كانت تل أبيب مدينة لليهود ، ورغم أنها مجاورة لها إلا أنك نادراً ما تجد يهودياً في يافا في ذلك الوقت إلا رجالاً من رجال الأمن تم وضعه من الانتداب ، عموما كان النادي يحتفل أو بصدد إحياء ذكرى ابن زيدون وضياع الأندلس ، وقد قدمت في تلك الأمسية قصيدة نالت إعجاب الجميع ، ومنهم عمر أبو ريشة الذي قام باحتضاني ، والقصيدة أقول فيها :

بين سهدي ولوعتي وولوعي

أيها الشعر من إليكَ شفيعي

وخيالي فد هام في ظلمة
الليل شقيا بقلبي المصدوعِ
أيّها الليلُ كمّ يلجُّ بك الشوق
وما بين أعينٍ وضلوعِ
فإذا القلبُ شعلةُ من لهيب
وإذا العين لجّةُ من دموع
أيها الليل كم يغني بك الوهمُ
أناشيدَ توبةٍ ورجوعِ
يتسلى عن السهاد ويهوى
نحو واد من الكرى والهجوعِ
فتلوح الذكرى على أفقها
المسحور ولهى بلحنها المفجوعِ
فإذا بالفؤادِ يهفو إليها
ثم يبكي مثل الوليد الرضيع
اطوي شجون الليالي
يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالى
وعالم الذكرى
وقفي في رياض قرطبة الزهراء
في روضها البهيج المريعِ
انشدي من حلى ابن زيدون شعراً
سامي الوحي عبقري الصنيعِ
نفحات الصبا ترقرق فيها

كندى الفجر فوق زهر الربيعِ
ولهيب الشكوى يفيض عليه
موجة من طهارة وخشوعِ
ولدى القصر عند مّلْكِ بني عباد
بُثّي شكوى الفؤاد الوجيعِ
واسألي عن أبي الوليد بإشبيليا
في محله العالي الرفيعِ
ذهب الدهر بالملوك وبالملك
وأمسى الجميع غير جميعِ
اطوي شجون الليالي
يا فكرتي الحيرى
إلى العصور الخوالى
وعالم الذكرى
وعلى شاهق بغرناطة الحمراء
في برجها السحيق المنيعِ
اهتفي بالمجيد من همة العرب
وإن لم يكن بها من سميع
سترى الصخر يلعن الزمن الوغد
ويأبى الشكوى لتلك الجموعِ
ويح شعري يكاد يصرخ فيه
مارد الكبر بُغضه للخضوعِ
أين ياشعر تلك أندلسٌ الإسلام
في عزها السني الرفيع

أأنادي الثرى فتنتفض الأرضُ
فتروي أخبار تلك الربوعِ
أم هناك الثرى كذلك أمسى
قبضة في يد الزمان الوضيعِ
أم تراني أستنهض العرب للمجد
وهم بين ضائع ومضيع
اطوي شجون الليالي
يا فكرتي الحيرى
وجاهدي للمعالى
وأخضعي الدهرا

وقد كنت أعد برنامجاً في إذاعة الشرق الأدنى ، وكانوا هناك يعرفونني حتى إنه من خلال العمل في تلك الإذاعة ، وبعض اللقاءات التقيت فيها بالعديد من الفنانين ، ومنهم فاخر فاخر وليلى مراد والشيخ فريد السنديوني ، وأنت تعرف حكاية الشيخ السنديوني .

المهم أنني في تلك الليلة كانت لي غرفة محجوزة في فندق رمسيس ، وذهبت بعد إلقاء القصيدة لأرتاح بالغرفة لكن بمجرد وصولي إلى الفندق أحسست بضيق صدر وحالة من عدم الاستقرار، وكل شيء يدفعني للخروج حتى أن عامل الاستقبال سألني : إلى أين؟ فموعد العشاء قد حان الآن !

فقلت له : لن أتعشى ، لكنه أكد لي أن حالة (البلاك آوت) مازالت تعم البلد ، وأنه سوف يضع سندوتشات في الغرفة لحين عودتي .

توجهت إلى سينما الحمراء لرغبتي في قضاء الوقت هناك خاصة أنه لا رغبة لي في النوم بالإضافة إلى الحالة التي أحسست بها وأنا في الفندق ، ولما ذهبت إلى شباك كان على الإنتظار لموعد بدء الحفلة رغم أننا في القدس كنا معتادين على العروض المستمرة ، المهم لقد توجهت إلى المقهى المقابل في انتظار موعد خروج الناس وبداية حفل (السواريه) .

ونوافذ وأبواب المقهى كانت مغلقة والزجاج (مدهون) باللون الأزرق ، وكنا في شهر مارس وكانت الأمطار في كل مكان ، وأنا حالتي غير طبيعية ، جلست لأحد المقاعد وطلبت شاي ، ولما هممت بدفع الحساب للذهاب إلى السينما .. قال لي الجرسون : الحساب مدفوع !

تعجبت من ذلك فأشار إلى أحد الأشخاص الذي رفع يده محيياً ، أنا لا أعرفه ولا أعرف الداعي وراء ذلك ، وكان شيئاً مستنكراً مني تماماً ، فقام حتى أقترب مني مقدما نفسه :

ـ آسف لهذا الأسلوب الاستفزازي للتعرف عليك ، أنا محمد العدناني موجه لغة عربية بمدرسة يافا الثانوية ، وقد كنت ضمن الحضور في الندوة ، وقد اعجبتني قصيدتك ، فلما رأيتك بالمقهى وجدتها فرصة كي أقترب منك أكثر ، والآن أراك تهم بالخروج ! إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ إلى السينما .

ـ سوف آتي معك ، فأنا لست مرتبط بأي مواعيد .

تضايقت جداً ، ولكني لا أملك أمام إصراره إلا السكوت وأنا أتعجب من هذا الرجل الذي يندفع في علاقة معي دون أدنى معرفة سابقة

فقلـت في نفـسي: ينتهـي الفيلـم ونفـترق كل إلى حـال سـبيله ، لكـن مجـرد أن أنتهـى الفيلـم أصر عـلى دعـوتي لزيارتـه في منزلـه ، أو بمعنـى أكـثر وضوحـاً أن أذهـب للمبيـت عنـده ، وهنـا لم أتمالـك نفـسي مـن الغيـظ وقلـت لـه :

ـ مـن غـير المعقـول وأنـا لا يربطنـي بـك أي شيء ، ولم أتعـرف عليـك إلا منـذ ثـلاث سـاعات تقريبـاً ، ثـم تدعـوني للمبيـت لديكـم .. هـذا غـير منطقـي !

كانـت لهجتـي معـه تتسـم بالغلظـة ، وهـو يقابـل ذلـك كلـه بلـين الجانـب ، وكان لطيفـاً أكـثر مـن اللـزوم ، وعللـت رفـضي الذهـاب معـه متحججـا بـأن لي غرفـة في الفنـدق .. كـما أن هنـاك أغراضـاً ، ولا يمكننـي المبيـت عنـده ، لكنـه ألـح في طلبـه مـما أضطـرني لمسـايرته والسـير معـه إلى أحـد الأحيـاء القديمـة مـن يافـا التـي تشـبه منطقـة القلعـة في مـصر، وكان النـاس طـول الطريـق يحيونـه مـما يـدل عـلى أنـه معـروف لديهـم مـما أدخـل الاطمئنـان إلى قلبـي .

وصلنـا إلى بيـت قديـم ولكـن يـدل عـلى ثقافـة أهلـه ، وكان الرجـل شـاعراً مـن الشـعراء البارزيـن ، وقـد أهـداني مؤلفاتـه ، وغالـب الأمـر أنـه لا يوجـد بالمنـزل سـوانا .. ربمـا ذهـب أهلـه لزيـارة بعـض الأقـارب ، مـما جعـل المنـزل خاليـاً مـن سـاكنيه وراح يبحـث عـن أي شيء في (النمليـة) التـي كانـت بمثابـة ثلاجـة هـذه الأيـام ، التـي توضـع بهـا الأطعمـة بعيـداً عـن الحـشرات ، فوجـد قطعـة مـن الخبـز والجـبن ، وأمضينـا الليـل في حديـث طويـل حتـى غلبنـا النـوم وأثنـاء ذلـك اسـتمعنا إلى صـوت قـوي لضربـة مدفـع تصورنـا أنـه مـن تـل أبيـب ، وعندمـا أصبحنـا خرجنـا مـن المنـزل ونحـن خاليـا الذهـن تمامـاً عـلى

اعتبـار أن ضربـة المدفـع هـذه ربمـا كانـت مـن داخـل تـل ابيـب ، لكن مجـرد الوصـول إلى مـكان الفنـدق حتـى وجدتـه كـوم مـن الـتراب ، ووجـدت هنـاك محمـود الحـوت ـ رئيـس النـادي القومـي الإسـلامي ـ يبـكي مـر البـكاء فلـما أقتربـت منـه كاد أن يغـشى عليـه ، وراح يحـدق بي وأخذتـه هيسـتيريا ، وظـل يقـول : كنـت أبـكي عليـك .. كنـت أبـكي عليـك .

وكان يظـن أننـي تحـت الأنقـاض ، وأنطلقـت روحـي إلى بارئهـا ، لكـن الـذي كان أكـثر عجبـاً هـو أنـا لإصرار محمـد العدنـاني عـلى اصطحـابي والإصرار أكـثر للمبيـت عنـده دون سـابق معرفـة مـع تحملـه غلظـة حديثـي معـه ، وكأن اللـه قـد أرسـله ليحـول بينـي وبـين هـذا القضـاء المحتـوم .

حينـما سـألتهم عـن السـبب في اختيـار هـذا الفنـدق بالـذات ، فإنـه مـن غـير المعقـول أن تكـون قصيـدتي بتلـك القـوة التـي اسـتفزتهم مـن أجـل قتـلي .

فعلمـت منهـم ـ أي هـؤلاء الأصدقـاء ـ أن الكتـاب الأبيـض سـوف ينتهـي مـع نهايـة شـهر مـارس القـادم كـما أن الجـوازات تقـع في أسـفل الفنـدق ، وأن تلـك الحركـة كان القصـد مـن ورائهـا إضاعـة الأوراق ، والبدايـة الأولى لطمـس الهويـة العربيـة .

## الأنحناء أمام المرض

هـذه حكايتـه مـع محمـد العدنـاني ، أو قصـة محمـد العدنـاني الـذي ألتقـى بـه مرتـين بعـد ذلـك ، واحـدة منهـما في لبنـان بعـين الحلـوة ، والأخـرى في الريـاض حيـث وافـاه الأجـل ـ يرحمـه اللـه ـ .

وانفتحـت آفـاق التفكـير في جملـة الأحـداث والحـوادث التـي يتعـرض لهـا الإنسـان بـين فـترة وأخـرى مـن حياتـه ، وإذا كانـت حكايـة محمـد العدنـاني أو حـادث تفجـير الفنـدق واحـدة مـن تلـك الحـوادث التـي تحمـل الغرابـة في وقائعهـا .. وكأنهـا مـن نسـيج الخيـال ، إلا أن تلـك الحكايـات لم تقـف عنـد هـذا الحـد بـل الأعجـب منهـا محاولـة الخطـف أو الخطـف الفعـلي التـي تمـت علـى يـد جماعـة صهيونيـة كانـوا يعتبرونـه حجـرة عـثره امـام طريقهـم ، وتعكـر صفـو مياههـم ، العجيـب أنـه عندمـا اسـتطاع الهـروب مـن مختطفيـه ، وفي محاولتـه للهـرب إلى أبعـد مـكان ممكـن ، تـم القبـض عليـه مـن قبـل الجنـود الإنجليـز لملابسـه الممزقـة ، وحالتـه المزريـة ، وأحـضروه إلى قسـم البوليـس حيـث كان هنـاك مـن يبحثـون عنـه ، ويتصـورون أنـه أنتهـى فعـلاً ، وهنـا أوصى بـه المأمـور خـيرا ، وقدمـوا لـه البسـكويت والشـاي لحـين إطـلاق سراحـه مـع فجـر اليـوم التـالي .

كل هـذا كـما أقـول لا يتـوازى مـع حجـم المعانـاة والاحسـاس بـالألم لمـا كان يعانيـه مـن الآم شـديدة بالظهـر بـل بالهيـكل العظمـي كلـه نتيجـة للعمليـة الجراحيـة السـيئة ، ولا أقـول الفاشـلة ، لأنهـا قياسـا عـلى الرؤيـة الطبيـة ، أو مـن الناحيـة المهنيـة في عـالم الطـب مـن أروع مـا يكـون .. هكـذا قـال الأطبـاء ، لكنـه وحـده كان يقـول : دخلـت

مستشـفى آرش في فرنسـا واضعـاً يـدي في جيـب البنطلـون وواقـف علـى قدمـي وقامتـي مرتفعـة ، وبعـد إجـراء العمليـة ثـم إعادتهـا مـرة أخـرى ، ثـم العـلاج الطبيعـي والتماريـن والجبـس والشـاش ورائحـة المستشـفيات وسـتة أشـهر مـن المتابعـة والعنايـة ، خرجـت وأنـا اتـوكأ علـى عصـاة ورجـلي لا تقـوى علـى حمـلي .

كان يعـاني مـن تلـك الآلام إلا جانـب نـزلات الـبرد ، وكذلـك عـدم وضـوح الرؤيـة والسـبب في رأيـه وراء هـذا الضعـف في الرؤيـة كان نتيجـة طبيعيـة لقراءاتـه الكثـيرة وبجـوار عينـه اليـسرى (لمبـة الجـاز) أو (الأتريـك) كـما يحلـو للبعـض تسـميته ، ولذلـك كانـت عينـه اليسرى لا يـرى بهـا تقريبـا ، وكان عندمـا يكتـب تتجـاور الكلـمات أو تتباعـد ، وربمـا جـاءت كلمـة فـوق الأخـرى .. ورغـم معاناتـه الشـديدة أثنـاء الكتابـة التـي يـصر عـلى أن تكـون بيـده لأنـه كـما يقـول : إن تفكـيره مرتبـط بسـن القلـم الـذي يكتـب مـن خلالـه عـلى أن يكـون القلـم ذا سـن دقيـق جـداً، فـإذا كانـت هنـاك مراجعـة يسـتخدم في ذلـك المزيـل الأبيـض الـذي يسـميه ـ الحـبر الأبيـض ـ لمحاولـة الطمـس ثـم إعـادة الكتابـة ، وفي أحيـان كثـيرة بـل أغلبهـا كان يطمـس الكلـمات الصحيحـة ويصحـح الخطـأ ، ولكـن في سـطر آخـر فـوق أو تحـت الكلمـة .

هـذه المعانـاة كانـت تأخـذ شـكلاً يوميـاً ، فهـو عـادة وخاصـة في الفـترة الأخـيرة اتخـذ مـن مسـكنه مقـراً للعمـل لإعفـاءه مـن شرط الحضـور والإنـصراف في المركـز لإعاقتـه فـإذا رغبـوا في استشـارة أو تحكيـم لأحـد الأعـمال ذهـب أحدهـم إليـه ، وكان آخرهـا كتـاب كبـير يحمـل عنـوان ـ المعتقـدات الدينيـة لـدى الغـرب ـ لكنـه لم يتمكـن مـن الإطـلاع عليـه .

كـما راجـع مستشـفيات العيـون المتخصصـة بالمملكـة العربيـة السـعودية وفرنسـا للوقـوف عـلى حالـة الإبصـار وإمكانيـة العـلاج ، وتعـددت المـرات ومنهـا مستشـفى الملـك خالـد للعيـون منـذ سـت سـنوات ، وتـم العـلاج باشـعة الليـزر ، وأجـرى العمليـة الدكتـور كريـم طعمـة وهـو أمريـكي الجنسـية مـن أصـل لبنـاني .

لم يذهـب للمستشـفى بعـد ذلـك بعـد ان اتـم الكشـف عليـه الدكتـور بيـتر نبتلانـد ، فيـما يؤكـد د. ظاظـا :أنـا بطبعـي لا أثـق بالأطبـاء !! وكانـت هنـاك متابعـة مـن الدكتـور أبـو الأسرار ، وكذلـك الدكتـور عبـد الـرازق السـيف ، وهنـا أود التأكيـد عـلى أن الدكتـور أبـو الأسرار كان محقـاً في تقديـره عـن نهايـة الإبصـار بالنسـبة للعـين اليـسرى ، مهـما كان رأي الدكتـور ظاظـا الـذي أغضبـه جـداً كلام الدكتـور أبـو الأسرار الـذي قـال لـه : عينـك اليـسرى هـذه انتهـت ويمكنـك ويمكنـك أنـت تعتبرهـا فقـدت أو ضاعـت منـك ، مهـما كان الحديـث في هـذه النقطة فقـد بـدأ انهيـار البـصر ، وكل الأشـياء التـي جـاءت بعـد ذلـك سـواء تركيـب كريسـتال في العـين بيـد الدكتـور جاسـم اليعقـوب أو الفحـص الـذي اتسـم بالعنايـة مـن الدكتـور سـعيد عبـد القـادر ، أقـول : أن محاولاتهـم هـذه للتخفيـف عنـه مـن وطـأة الأمـر عـلى تفكـيره الـذي لا يقبـل فقـد أي جـزء مـن جسـده ، وفي الوقـت الـذي يفتخـر فيـه أنـه لم يفقـد سـناً واحـداً كانـوا يمطرونـه بمزيـد مـن الأدويـة والقطـرات والحبـوب ، وكان المجهـود الأكـبر هـو محاولـة تخفيـف الضغـط عـلى العـين .

تعـودت في فـترات كثـيرة أن أقـرأ عليـه بعض المكاتبات والرسـائل سـواء التـي تـرد مـن القـراء ، أو مـن طـلاب العلـم ، بعدهـا اعتمـد عـلى

قـراءتي حتـى في البحـوث وموضوعـات بعـض الرسـائل للإجهـاد الشـديد نتيجـة للمجهـود الكبـير الـذي كان يبذلـه في القـراءة ، وهـو يعتمـد عـلى مجموعـة عدسـات مكـبرة إضافـة إلى نظـارة القـراءة ، ومـع ذلـك ولمحدوديـة التوقيـت ونوعيـة الأبحـاث كان يخطـر في بـالي بـين حـين وآخـر محاولـة الخـروج مـن الجـو الأكاديمـي إلى روح العـصر الـذي لم أعشـه ، ومعرفـة مـا كان يـدور ، ولذلـك حملـت إليـه مجلـة قديمـة تحمـل اسـم ـ الفكاهـة ـ محـددا لـه الزمـن الـذي كانـت تصـدر فيـه عندمـا كان عمـره عـشر سـنوات ، فأخذهـا مـن يـدي ليتصفحهـا ثـم وقـف عنـد بعـض الأبيـات مـن الشـعر ، وكذلـك بعـض الأزجـال ورأيتـه يدقـق في بعـض الرسـومات التـي كانـت ممهـورة بتوقيعـات مختلفـة ، منهـم الرسـامون شـوقي ، ورفقـي ، وسـانتوس الأسـباني وكذلـك لاروش فوكـو الفرنـسي وآخـرون .

وطـال الحديـث عـن الفنـان الزجـال حسـين شـفيق المصري ، الـذي كان ينافـس بـيرم التونـسي وهـو والـد حـرم الزجـال المعـروف محمـد عبـد المنعـم (أبـو بثينـة) ، وهنـا استوقفته صـورة لــ محمـد محمـود باشـا ، وظهـرت عـلى عينـه لمعـة خاصـة ، اسـتعادت ذكـرى المـاضي والحنـين لأيـام خلـت ، ومـع ذلـك أقـصى مـا يفصـح عنـه الآن هـو الإعجـاب بالصـورة ، وسـألت الدكتـور عـن سـبب إعجابـه بمحمـد محمـود باشـا، فقـال :

كان (صعيـدي جـدع) وكان في منتهـى الأناقـة لدرجـة أن قمصانـه يرسـل بهـا إلى بريطانيـا مـن أجـل الغسـيل والكـوي .

ـ سبحان الله ألهذا تعجب به !!

ـ لا .. إنمـا كانـت لي معـه قصـة جميلـة جـداً ، ومـن الأشـياء التـي أعتـز

بالقيام بها أو المشاركة فيها ، فما هي تلك الحكاية ؟

## عبد الفادي والأستيمو جورنو

يقول د. ظاظا : كنا مجموعة من المدرسين تم إجازتنا لدى وزارة المعارف لتدريس مادة اللغة العربية في مدرسة الآباء اليسوعيين والمدارس الأجنبية ، وكنا مجموعة كما قلت تم تعييننا للتدريس ، إلا أن كل واحد منا له شكل وأسلوب ، فهناك خريج الأزهر ، ومنا من درس في كلية دار العلوم ، وهناك خريج آداب مثلي .. المهم أن واحد من هؤلاء نصحني بعدم مصاحبة الزميل أبراهيم عبد الفادي على إعتبار انه مرتد عن دين الإسلام ، وقد تم تنصيره وتزوج من لبنانية وانجب منها ابنته ، وكانت مصاحبتي له على اعتبار أنه لا شأن لي بمثل تلك الأمور ، واتضح أن إبراهيم هذا كان من أبناء أسيوط وله أخ أكبر يدعى عبد الله الكبير ، والأخ الثاني محمد الكبير وإخوانه مسلمين مؤمنين ، وجاءت قصة إرتداده في مجلة إيطالية اسمها ـ ستيمو جورنو ـ أي مجلة الأحد أو اليوم السابع ، وكانت مشاكله مع زوجته تزداد يوماً بعد يوم خصوصاً لو علمنا أنها لم تكتفِ به كرجل وزوج ، وكانت ترفض معاشرته والإقتراب منه ، وهو يشكو لي حاله تحت وطأة السكر ، ومن ناحية أخرى كانت عائلته ترفض الاقتراب منه إلا طلباً لموته ، وكانت لديه رغبة أكيدة في ترك زوجته ، وسألني الحل في ذلك .. قلت له : ترد نفسك ثانياً إلى الإسلام ، ووجد الاقتراح

صدى في عقله ليس من باب الإيمان ، فهو لم يخرج إلى المسيحية من باب الكفر لأنه لا يعرف عن أي الدينين شيئاً ، المهم لما علمت زوجته برغبته في تركها والعودة إلى حظيرة الإسلام تشابكت معه في معركة خرج منها بجروح وكدمات ، ووصل عندي في حالة سيئة جداً فأخذته إلى قسم البوليس ، وبعد تمام محضر الشرطة (والذي منه) تم رفع قضية ومحكمة ومداولات أنتهت بتطليقه منها ، وعودته مسلماً إلى أهله الذين فرحوا جداً بهذا الأمر وقالو : إن ظاظا كان وراء الموضوع ، وقد طلب رؤيتي خاله ـ محمد باشا محمود ـ وقد جلست إليه ووجدته مصرياً صميماً محباً لبلده ، وفي منتهى التواضع مع الجميع حتى الحلوجي (بياع الفلافل اللي في الحسين) .

لم يبق في قسم اللغة العربية بمدرسة الآباء اليسوعيين إلا أنا وأنطون غزال ، وبدأ الغم خصوصا بعد حكاية عبد الفادي ، وبدأوا يمارسون بعض أساليب الضغط والتضييق على عملي بتكليفي بأعمال ودروس حتى في الأعياد الإسلامية ، وحينما تأخرت عن الحضور المبكر في أحد أيام عيد الفطر بسبب ازدحام الناس في المواصلات ، ورغم أني أخبرت الأب جبرائيل عفيفي بالعذر في التأخير إلا إنه قام (بخصم) حسم راتب أسبوع ، وتكرر هذا في عيد الأضحى وبحسم كبير بلغ راتب ثلاثة أسابيع ، تركت العمل في اليوم كله ، وقدمت شكوى في هذا الراهب ذا الأصول اللبنانية إلى وزارة المعارف ، وبعد أخذ أقوالي أرسلوا شيخاً معمماً اسمه محمد الجافي لمقابلة مسؤول المدرسة ، وفي لقاؤه مع القسيس وعلم اسم المحقق علق قائلاً : (جاف لفظاً ومعنى) وتمت تسوية الموضوع

، وبعدهـا حاولـت الاسـتئذان في التأخـير لـزواج إبنـة أختـي .. سـألني عـن مـكان الفـرح ، وبينـما أنـا مشـغول في الحفـل أرسـل لي خطـاب ظننتـه للتهنئـة بـزواج الإبنـة ، ولكنـه إخطـار بالإسـتغناء عـن خدمـاتي ، وجلسـت بعدهـا بالمنـزل وشـعوري بالظلـم وهـذا الطـرد التعسـفي يخنقنـي ، والقـدر كان يصنـع لي تسريـة وتعويـض لم أحسـب له حسـاباً مـع وصـول خطـاب مـن الجامعـة ومـن الدكتـور طـه حسـين لتعيينـي معيـداً بالجامعـة ، أحسسـت بـأن الحيـاة سـوف تبتسـم لي مـن جديـد بعـد طـول عبـوس ، ومـن وجـودي بالجامعـة تـم ابتعـاثي وتلـك قصـة أخـرى .

جمعتني بالدكتور ظاظا مائدة الغداء ، وبدرت منه كلمة جميلة ذات معنى عندما قال : (الحلو في آخر الوجبة) ولما كنا بصدد الحديث عن واحدة من الإذاعات وهو يصفها بأنها إذاعة تعيش على خمسة عشر اسطوانة تعيدها بين فترة وأخرى ، وهناك من الموسيقى الصاخبة أو الخاملة في رتابة موسيقى الجنائز ، ثم أخذ يقلد بعض الجمل الموسيقية بشكل أضحكني ، مما دفعني لأستعيد معه ذكريات أغنية قديمة كان قد كتب كلماتها في بداية حياته للمطربة ـ حياة محمد ـ أخت المطربة المعروفة سعاد محمد ، وهو يحاول في جهد جهيد تذكر بعض من كلمات الأغنية دون جدوى رغم ذاكرته البلورية التي يتميز بها عن أقرانه في نفس العمر ، والتي تستطيع استجلاء الأسماء والتواريخ بشكل بديع جداً ، واحمل بين يدي مفكرة صغيرة ادون بها بعض أرقام الهواتف التي تعينني على تلبية بعض أمور الدكتور ، ومن بين الأرقام وقع نظري على اسم ـ ابتسام لطفي ـ وكل ظني وخيالي يتجه للمطربة اللبنانية ـ نزهة يونس ـ ولا أدري ما السبب في هذا الخلط بين الاسمين ، وسألته عن العلاقة التي تربطه بصاحبة الاسم ، وبدون تفكير قال : إنها مطربة سعودية حجازية جمع بينهما اتصال تليفوني لأكثر من مرة ، وكانت تقول : إنها سعيدة أن تجد نفسها تتحدث إلى ظاظا ، وإنها في إنتظار كلمات من تأليفه كي تغنيها ، ثم انقطعت عن التواصل وبعدها بفترة عاودت الاتصال من جديد تسبقها الإعتذارات بأنها كانت مشغولة بأمها خلال

فترة الإنقطاع ، وهي مبصرة من ذوات الهمم كما هو معروف ، وأما عن خامة صوتها جيدة جدا لولا أنه يشبه ضعف جسدها ، كانت فرصة أسهب فيها بعد ذلك أغنيات الزمن الماضي مثل أغنية للشيخ محرز سليمان يقول فيها :

مال واحتجب

وادعى الغضب

ليت عازلي

يشرح السبب

عزاله رضا

ليته عتب

وحسب طريقته في الحديث استكمل بأن منهم (التقيل قوي) الشيخ علي محمود وله أغنية :

يا حادي يسري على ظهر قاعود

بالله عرجني على سفح زرود

فلم يعجب هذا الكلام المرحوم بيرم التونسي فقال :

طول عمونا وأحنا

ربطين لك بظهر قاعود

وبيتنا فاضل

ولا اتهدش بسفح زرود

مفيش أديب في البلد دي كلها موجود

يكتب موشح جديد

للشيخ علي محمود

وارتفعت ضحكاتنا معاً ، وأخذنا العجب من حضور بيرم الذي لا

يفـارق مجلسـنا بسـيرته في أي موضـوع نتطـرق إليـه .
وفي رأسي موضـوع يـدور داخـل عقـلي ، وأحـاول تأجيـل الخـوض فيـه حتـى يكـون هنـاك داعٍ أو يكـون لـدى الدكتـور متسـعاً مـن الوقـت لمجـال البحـث فيـه لإعتقـادي أن أمـراً يـدور حـول الديانـات والعقائـد موضـوع شـيق ، وهـو قمـة تخصـص الدكتـور . ويحتـاج منـي قمـة الإنتبـاه والتركيـز والوعـي لمـا سـوف يطرحه مـن تعاريـف ومصطلحات تعكـس مـدى الدقـة في مثـل تلـك الأمـور التـي لا تقبـل التأويـل أو المعرفـة دون الرجـوع للمصـادر الثابتـة ، ولكـن بمـا أن أسـم القمـص ـ قزمـان ـ تتكـرر أمامـي مـرات ونحـن نتحـدث عـن العلاقـات التـي تربطـه ببعـض أصدقـاؤه مـن المسـيحيين المصريـين ومـن المصادفـات العجيبـة ان الشـارع الـذي اقيـم بـه بالإسـكندرية اطلـق عليـه اسـم ـ ابـن قزمـان ـ ورغـم علمـي بأنـه أحـد الشـعراء إلا أنـه ارتبـط شيء بـين الاسـمين عـلى نفـس مسـتوى حديـث اليـوم الـذي اختلـط فيـه اسـم المطربتـين .
قال عن القمص قزمان :
« في الغالـب يكـون عايـش ، وبعدين الراهـب البرامـوسي ، وهـذا باقـي اسـمه أو كنيتـه كان قـد شرع في أن يكتـب ترجمـة جديـدة للكتـاب المقـدس ففاتحنـي في هـذا الموضـوع بعدمـا فـات عـلى فـؤاد حسـنين عـلي و مـراد كامـل ، وهـما أسـاتذة لغـات سـامية من الجيـل السـابق لي ، ففهمـت مـن كلام قزمـان أنـه لمـا طلـب مـن مـراد كامـل أن يترجـم لـه أو يراجـع لـه كان محتجـاً بأنـه مشـغول جـداً فــ... تركـه . فـؤاد حسـنين حـب يقـدم ترجمـة جديـدة منهـا صفحتـين أو ثلاثـة من سـفر التكويـن ، وأراد تغيـير الكلـمات [ عندمـا خلـق اللـه السـموات

والأرض ، والأرض كانت خربة وموحشة وظلام ....] هذا تقريبا النص الخاص للفصل الأول من سفر التكوين { في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل بين النور والظلمة......} الإصحاح الأول ، وبدء الخليقة وكان يقرأ الراهب البراموسي وسألني عن رأيي ، وقلت له : انه كلام مفهوم ولكن ككتاب مقدس يجب أن يكون هناك وحدة للنص ، ويقول سماه ليلاً بدلاً من دعاه ليلاً..

لماذا؟

بسطروس اللي قاعد في دير أبو حنس ويزرع قصب وقدمه موحلة في الطين لا يدرك الفرق أنه رأي النور أنه جيد أو أنه حسن ، وذلك كله عنده واحد ، وهو لا يؤمن بأن هذا كلام الله وإنما هي معاني نقلت من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية ، ولكنه يتساءل أو يتخيل أنه لو كانت تلك اللغة كيف يسمعها من الرب .

وكذلك إذا جاءه مبشر أو صاحب دين آخر وأقنعة بحلاوة وقيمة الموضوع ربما آمن بذلك ، ومن هنا أنا وقعت في مشاكل مع بعضهم ، والذي طعن في ترجمتي للأب قزمان في زمن ـ الأنبا كيرلس ـ كان يراجعها ، وكان يقول : يجب أن يكون مجاز من الجامعة ـ أي جامعة مصرية ـ ، والأنبا كيرلس كان يراجعها وكان يقول : لقد بدأت أفهم كلام ربنا في معنى محدود دون الغرابة الشديدة التي تبعد عن النص الأصلي بما يتطلب المعنى (سَر

.. فـرح ، أعلـن .. شرع) وبـدأ يبـين قزمـان أن حسـن ظاظـا اشـترط تشـكيل النـص بهـذا الشـكل ، وتوقـف المـشروع ، وتوقـف المـشروع عـلى الرغـم مـن الحـزن الشـديد ونصحـه الأنبـا كيرلـس طلـب منـه أن يتحمـل ، والمعـروف عـن الأنبـا كيرلـس أنـه رجـل حكيـم ، وعندمـا كان يجلـس مـع عبـد النـاصر ويسـتمع إلى نكتـة عـن جـمال عبـد النـاصر كان يتفكـه بهـا وهـو يعلـم أنهـا تصـل لـــ جـمال عبـد النـاصر ، ومنهـا النكتـة المشـهورة عندمـا كان يسـتقبل رئيـس الاتحـاد السـوفيتي وقـال لـه : العنـوان بتـاع البطريكيـة عندكـم ليـس اشـتراكي .

فقال : كيف ذلك ؟

قـال : بطريركيـة الأقبـاط الأرثوزوكـس كـما رسـم بـه السـلطان ، وعنـد عودتـه وجـدوا اللافتـة تغـيرت وكتـب بـدلا منهـا (مؤسسـة الأقبـاط الأرثوزكـس الاشـتراكية) .

## قديمة

عندما تجتمع غربة المكان وغربة الزمان ، وتضع بعض القلوب في أتون الاشتياق إلى الأهل ، ولهفة تلمس أخبار الأعزاء حتما تتقلب المواجع في مرجل تنصهر فيه كل الشكايات ويبقى الأمل في اقتراب وعد لقاء الأحباء هو أغلى وأعز وأثمن الغايات ، كنا نلتقي لأننا كنا في حاجة لتفريغ لواعج الأسى في القلوب، وكان الرجل يحمل آلامه الخاصة فيطرح بعضاً منها خلال حكاية قد تبدو أنها حدث الساعة ، وقد تكون بقايا من دموع عز عليه إخراجها فتحجرت في المآقي وخرجت مرة شعراً وأخري مقالاً أو كشكولاً من النوع الذي اصطلحنا على تسميته ـ اللعب على الحبل في سيرك الكتابة ـ ، وعندما أصبح ترددي على منزله يأخذ شكل العادة واضعاً يدي على جرس الباب مسترق السمع للإجابة ، وبنفس الكلمة المعتادة (أتفضل) وهذه المرة لم أجده كعادته إلى جوار التليفون ، وإنما يجلس إلى مكتبه ممسكا بأوراقه والقلم والمكبر ، وقد أمتشق قلمه لكتابة كشكول هذا الأسبوع بعنوان (قديمة) وبعد السلام والتحية المعتادة ، توقف عن الإستمرار واستدار محاولا النهوض ، فرجوته أن يظل عاكفا على أوراقه حتى الإنتهاء من إعداد الشاي كي يكمل ما بدأه ، خاصة إذا كنت تدرك أن يوم السبت الذي يتم فيه كتابة الكشكول هو من الأيام الأكثر تحذيرا وامتناعا عن فتح باب الزيارات ، وهذه المرة كان أكثر إصراراً على ترك الأوراق واعتدل قليلا إلى حد ما معتمدا على حواف المكتب كي يؤكد لي أنه ما عاد يستطيع الاستمرار في الكتابة ، وبخطوات بطيئة جداً

نظـرا لحالتـه الصحيـة توجـه إلى المقعـد المفضـل لديـه بجـوار منفضـة السـجائر فهـو نـادرا مـا يدخـن أثنـاء الكتابـة ، وعندمـا اعتـدل في الجلـوس وارتـاح بالمقعـد بـدأ الحديـث عـن معنـى العنـوان (قديمـة) لأنهـا كلمـة يرددهـا المسـتمعون لمـن يلقـي بالنـكات تعبـيرا منهـم عـن الملـل مـن الإعـادة والتكـرار ، ولذلـك هـو يـرى أن مـا يقـوم بـه ـ نـتن ياهـو ـ (كان يحـب ان يكتـب الاسـم بهـذا الشـكل بـلا مـن نتنياهـو متصلـة) رئيـس وزراء إسرائيـل مـن منغصـات ومضايقـات إنمـا هـي نفـس لعبـة جميـع المتشـددين في جميـع أنحـاء الدنيـا ممـن يغلقـون عقولهـم وقلوبهـم عـن منطـق العقـل والمصلحـة العامـة ، وكأنـه يريـد بهـذا المقـال أن يقـول لـه ـ قديمـة العـب غيرهـا .

وجـدت نفسي أدخـل في الموضـوع ولكـن عـلى طريقـة الرسـامين فقلت لـه : أعتقـد يـا دكتـور أن بـن جوريـون رغـم شـكله الكاريكاتـوري كان أكـثر رقـة ولطفـاً مـن هـذا الشـاب الوسـيم (بيبـي) فـرد قائـلا :

« جـداً ، بـن جوريـون كان متخصـص في الفلسـفة اليونانيـة ، وقـد التقيـت بـه في بيـت جـون راسـل مديـر الأمـن العـام في القـدس ، والمفـوض لمكافحـة المخـدرات في الـشرق الأوسـط ، وقـد رأيتـه وهـو يعطـي قطعـة حشـيش كبـيرة للطبـاخ الخـاص بـه وهـو يضحـك قائـلاً : أنـت ومحمـود فـوزي وأنـا وبـن جوريـون ممكـن صالـح هـذا يضـع لنـا السـم في الطعـام دون أن نشـعر ولا بـد مـن تقديـم رشـوة لـه . أمـا جولـدا مائـير فكانـت تتحـدث الإنجليزيـة أفضـل مـن أهلهـا ، كـما كانـت مثقفـة جـداً ودارسـة لـلأدب الإنجليـزي ، واسـحاق نافـون الـذي أصبـح رئيسـاً لدولـة إسرائيـل ، كان يـدرس في نفـس الجامعـة العبريـة ، وقـد تعرفـت عليـه مـن مكتـب للبريـد وهـو الـذي قـدم نفسـه لي ،

المهـم أن بـين هـؤلاء لـن تجـد عقـل ـ أوسـخ ـ مـن عقـل نـتن ياهـو رغـم أنهـم صهاينـة وملعونـين ولكنهـم لديهـم مـن الفكـر مـا يجعلهـم ينتظـرون قبـل اتخـاذ القـرار ، أو حتـى ربمـا ينتظـروا المستشـارين ، أمـا نتنياهـو فـ دائمـاً يعـوم عكـس التيـار ، ده حتـى كان منهـم نـاس دمهـم خفيـف أمثـال توجـو مزراحـي المخـرج الـذي أخـرج العديـد مـن الأفـلام مثـل ليـلى ، وسـلامة ، وأيضـا فيلـم شـالوم ، ومـن أجمـل أفلامـه فيلـم ـ السـتات في خطـر ـ وهـو يحـاول تجسـيد شـخصيات عـن هتلـر وموسـوليني في إطـار كوميـدي ، وكثـيرا مـا كان يعمـل معـه عزيـزة أمـير وتحيـة كاريـوكا وإحسـان الجزايـرلي وليـلى مـراد وآخـرون .

وكتب له كلمات أغاني الفيلم المرحوم بيرم التونسي ومنها :

الأولة .. والثانية .. والثالثة

الأولة لحم طايب والعصايا شوم

وتهفه ما تخشى ملامة

والثانية عضاضة

يطحن ضبها الدقشوم

وتسفه أكوام أكوام

والثالثة قبقابها

ينزل على الجمل ما يقوم

على خفه ثمان تيام

ويرد عليهم المعلم بحبح وعلى نفس الوتيرة :

الأولة .. والثانية .. والثالثة

الأولة النسا تضرب واحنا نصد

والثانية لحمي جموسي بس هاتها تعض

والثالثة قبقابها ضاني فضك أنت فض

الأولة .. والثانية .. والثالثة

كل النساء كويسة فهن مهما ضربننا

وهم مهما بطحننا

فاننا طول عمرنا .. خلطبيطا في بعضنا

لقد ترك توجو مزراحي مصر عندما أعلنت دولة إسرائيل وأنتج أول فيلم عام ١٩٥٠ ، كما أنه صاحب فيلم نشيد الأمل ، وهو نفس النشيد الوطني الإسرائيلي .

## نعم أعشق النحت

كان السعي من ناحيتي للتعرف على الأستاذ الدكتور من أجل الاستزادة مما لديه من خبرة واسعة في تدريس تاريخ الفن ورغبتي في الاقتراب من روح الفنان الذي يلبس ملابس الأديب والعالم والمفكر والكثير الكثير ، حتى كاد أن يصبح الممثل الوحيد على خشبة مسرح الحياة الثقافية واللاعب الوحيد لكافة الأدوار . ويحكي بنفسه عن طرفة حدثت معه لتجسيد ما بدأت تصوري هذا مما سبق ، وذلك عندما قام أحد وزراء التعليم لدولة من الدول الأجنبية الضيوف على مصر وضيف وزارة التعليم العالي ، وفي أثناء الجولة المرسومة للضيف التقى بالدكتور في كلية الآداب وهو يحاضر في فقه اللغة ، وخلال المرور بين الأقسام وزحام الإحتفاء بالضيف كان وقت المحاضرة قد أنقضى ، ولديه جدول في كلية الفنون وتصادف أيضاً وصول الضيف إلى هناك مع بداية المحاضرة ، فنظر الضيف إلى ظاظا نظرة ذات معنى خاص ، وانتهت المحاضرة كسابقتها ، وانطلق بسيارته إلى كلية الهندسة ، وكان يحاضر هذه المرة حول القباب والأقواس في المباني القديمة ، وهنا دخل الضيف ولم يفته أن يتوجه بالحديث إلى الدكتور ظاظا قائلاً : أكيد أنت ضمن الممثلين الجاهزين لتسلية الضيوف ، ومن غير الممكن أن تقنعني أنك تقوم بهذه الأعمال ، إنما هو تكليف من المراسم ، تلك قصة انتهت ولن يقتنع الضيف أن هناك جدولاً ثقيلاً كان ينتظر الدكتور للقيام بالمزيد ، ولكن الذي يعنيني هنا في تلك الساعة هي روح الفنان وسألته عن الفن فقال :

عرفت مختلف أنواع الفنون ولكني أميل إلى النحت أكثر ، ودخلت مشروع القبول في اللوفر ببورتريه (بارز) بالسكين ، وكان أهم ما يميز أعمالي أنها كأعمال البرونز ، والذي شجعني على هذا جمال السجيني ـ يرحمه الله ـ الذي كان يدرس في مدرسة الفنون وليس في اللوفر ، وبين الأثنين يوجد كوبري من باب مدرسة اللوفر سيرا لمدة دقيقتين إلى مدرسة الفنون ، ويسمونه كوبري الفنانين يشبه (المعدية) وله درابزين من الناحيتين ويرتفع عند جسر النهر حوالي أربع درجات منعا لمرور السيارات ، ولذلك كان الجماعة يدققون في اللغة الفرنسية ويسمونه (بارسيل) لا يسمونه كوبري إنما (معدية) .

يمكن تستغرب أني كنت في باريس أتلقى دروسي في أكاديمية العلوم والفنون والآداب والسياسة والإجتماع وأكاديمية الطب ، ولقد درست الطب لمدة سنتين وتركت الطب وأنا في السنة الثالثة ، ولم تكن لدى الرغبة في دراسة الطب ولكن من أجل البابلي أشوري كي أكون عضواً في الجمعية الآسيوية وتم تأسيسها مع أكاديمية الطب وعمرها الآن ٢٠٠ سنة ، ودرست علم التشريح والترميم وعلوم المتاحف في اللوفر ، ثم هناك فن ما قبل التاريخ كنت أدرسه مثل الآشوري والبابلي واقف عند فن كريت أي قبل الفن اليوناني .

وسألته عن البوب آرت والأوبتكال أرت ، أشعل سيجارته ولمس لحمة الأذن ثم راح يشرح لي بصوت كأنما يأتي من بعيد : مانيه ، ومونيه ، وبيسارو ، وفان جوخ ، وسيريو كان ظهورهم ناتجاً عن تطور علمي يقول أن اللون الأبيض هو امتزاج جميع الألوان في

حركـة الدائـرة ، وأمـا الأسـود فهـو خـروج الضـوء عـن هـذه الدائـرة ، وكان تأثرهـم في ذلـك بتحليـل ألـوان الطيـف الـذي تمـت دراسـته في علـوم الفلـك والرصـد بقـرون كثـيرة ، ولكـن المنشـورات الزجاجيـة التـي تحلـل ألـوان الطيـف ظهـرت في القـرن السـادس عـشر .

ووضعـت الألـوان جـداول فلـما وصلـوا إلى تحليـل ألـوان الطيـف بهـذا الشـكل تبـين أن الطبيعـة لم تمـزج الألـوان كـما يمزجهـا رسـام الألـوان المائيـة ، ولكنهـا تضـع خلايـا ملونـة ويتضـح ذلـك نتيجـة وقـوع الضـوء عليـه فمثـلاً الفـرق بـين مـن يرسـم ورقـة شـجر بالطريقـة الكلاسـيكية والأخـضر يصنعـه مـن الأزرق والأصفـر وبالتـدرج الـذي يرغـب فيـه ، لكـن التأثيريـين قالـوا : لا أصنـع (بقـع) مـن الألـوان (تنقيـط) عندمـا تريـد رسـم حقـل قمـح مثـلاً ، واللـون الرمـادي لا يوجـد في الطبيعـة ، وهكـذا يأخذنـا الحديـث داخـل أروقـة المتاحـف واسـتوديوهات أهـل الإبـداع دونمـا الشـعور بالملـل ، ومهـما كانـت ميولـك فسـوف تخـرج بمعلومـة تحتـاج منـك الرجـوع إلى العديـد مـن المراجـع ، وهـو هنـا يختـصر لـك المسـافات بكلـمات بسـيطة .

وعـن التأثـير التكنولوجـي في تمحـور الشـعور والإبـداع يقـول : تاريـخ التصويـر بالـذات يـدل عـلى أن كل شيء تغـير بعـد الصـورة الحائطيـة التـي تعلـق ـ كان الفريسـك يثبـت قبـل ذلـك عـلى الحائـط ـ والفنـان الـذي يكلـف بزخرفـة المبنـى يـأتي كي يعايـن المـكان ، ويسـأل السـكان عـن طبيعـة الغرفـة وماهيتهـا ـ أكل ، اسـتقبال ، نـوم ...... ـ ، والبحـث في مصـدر واتجـاه الضـوء قبـل ظهـور السـبوت لايـت .. الضـوء فعـلاً مهـم جـداً للعمـل بالنسـبة لـه ، والخامـات حسـب السـطوح لكنـه الآن يرسـم اللوحـة ولا يـدري أيـن مكانهـا ، أو قـد يتـم نقلهـا مـن

مـكان إلى آخـر .

كان د. ظاظا تاريخاً فنياً حياً..

وقـد ننتقـل بالحديـث مـن هنـا وهنـاك ، وتظـن أن الأمـر مجـرد دردشـة لقضـاء الوقـت ولكنـه عندمـا يسـتعرض في كثـير مـن الأحيـان لشريـط أفـكاره اسـتعدادا لمقـال مجلـة الفيصـل ، أو كشـكول لجريـدة الريـاض ، أو نـدوة سـوف يحـاضر فيهـا ويناقـش في بعـض النقـاط لأكـثر مـن زاويـة حتـى إذا استحسـن واحـدة منهـا وجدتهـا مكتوبـة بالمقـال ، وهـو عـلى كل الأحـوال سـواء اسـتجمع عنـاصر الموضـوع أو كان يشـغله يبقـى في حالـة توتـر تنعكـس عـلى معظـم مـا يتحـدث بـه عـن الآلام التـي يشـعر بهـا في عظـام الظهـر كلـه ، ثـم في بعـض الأحيان يحلـو لـه اسـترجاع أحـداث مـن المـاضي وكأنـه يمـلي عـلى مذكراتـه ، وتحدثـت معـه في رغبتـي في أمـر تدويـن البعـض مـن تلـك الذاكـرة البلوريـة وبعـض الأحـداث التـي مـر بهـا ، وكأن الأمـر قـد لاقـى قبـول وصـدى طيـب لديـه ، وشـجعني عـلى تدويـن بعـض الأسـماء والتواريخ ، وكذلـك التسـجيل الصـوتي للبعـض مـن تلـك الأحـداث ، وأنـا أعـد نفـسي للكتابـة عـن هـذا الجبـل الضخـم مـن المعرفـة والعلـوم والفنون والآداب ، وبـدأت في كتابـة بعـض الصفحـات في ثقـة اسـتمدها مـن دعمـه لي بالقـول : إذا سـألك أحدهـم مـن أيـن أتيـت بتلـك المعلومـات ، يكفـي أن تقـول لهـم هـو مـن قـال هـذا الـكلام ، وأنـت يـا أبنـي لا تـدري مكانتـك عنـدي .. عمومـا لم يبـق شيء مـا اسـتره عنـك .

وتـلى ذلـك تنهيـدة بعمـق سـنوات عمـره قائـلاً : ابنتـي تحـب مـصر جـداً وتقـول لي انـك لا تحـب مـصر بمـا فيـه الكفايـة ، هـي لا تـدري كـم أحـب مـصر ورغـم أصـولي الكرديـة لا أنـسى أننـي مـصري بمعنـى

الكلمـة ، ولا تنـسى أن مـصر عظيمـة جـداً في حضارتهـا وتاريخهـا والأمـور التـي جـرت عـلى أرضهـا ، وقبـل أن أنـسى أذكـر أنـه حـدث خـلاف بينـي وبـين ـ مسـيو لويـب ـ رجـل المباحـث الفرنـسي ، وهـو يهـودي مـن أصـول مصريـة عندمـا حـاول يلصـق بي عـدة تهـم ، مـن أجـل ترتيـب وتكويـن حكومـة مصريـة موازيـة في المنفـى ، ولمـا تذكـرت أنهـم (أي عائلـة لويـب) كانـوا يبيعـون السـاعات في العتبـة ، وكان لي موقـف صلـب معـه ، ولمـا تفـوه فرنـسي آخـر في نفـس المكتـب بأننـا شـعب متخلـف ، قلـت لـه : هـا أنـا أرد عليـك بنفـس لغتـك ولهجتـك فمـن منـا المتخلـف ؟ تلـك المواقـف أتذكرهـا بإعتـزاز ، ومـصر عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر أول أمـة تحكمهـا امـرأة ، وكان ذلـك لــ حتشبسـوت وكليوبـترا ولم تسـبقها أمـة في ذلـك أي أن المـرأة عـلى أرض مـصر نالـت مـن الحقـوق مـا لم تـراه عـلى أي أرض سـواها ، وحتـى في الإسـلام حكمتهـا ـ أم خليـل ـ المعروفـة بشـجرة الـدر .

ومـن العجيـب والفريـد أن يحكمهـا أيضـاً عبـد (بربـري) ـ زنجـي ـ وخـصي وهـو كافـور الأخشـيدي ، وللعلـم فـإن المصريـين هـم أول مـن آمنـوا بالآخـرة ، ولمـن يريـد التأكـد مـن هـذا يمكنـه الرجـوع إلى النقـوش والآثـار في أعـرق حضـارة عرفهـا الإنسـان ، بـل هـم أول مـن كتـب بالحـبر عـلى الـورق ، وأهلهـا أبعـد النـاس عـن التمييـز العنـصري ، ونيلهـا هـو أطـول أنهـا العـالم وعـلى جانبيـه قامـت الدنيـا ولم تقعـد حتـى الآن .

ومـع هـذا لقـد انظلمـت كثـيراً في مـصر ، وتعرضـت لأمـور غريبـة ويكفـي أننـي لم أرقـى إلى درجـة الأسـتاذية إلا قبـل المعـاش ، وحتـى عندمـا تـم إنتـدابي للعمـل في المملكـة المغربيـة وقـع عـلى الحرمـان

مـن بـدل السـكن ، وتلـك قصـة أخـرى نسـتكملها غـداً.
لقـد علمـت بعـد فـترة انـه الوحيـد في الأسرة الـذي يبحـث عـن حكايـة الأصـول الكرديـة ولا يوجـد في الأسرة مـن يهتـم بمثـل هـذه الأمـور سـوى ابنتـه الروائيـة والتـي درسـت الأدب الكـردي .
ولإستكمال حكاية المملكة المغربية يقول :
لم أرقـى إلى درجـة الأسـتاذية إلا قبـل المعـاش ، وحتـى عندمـا تـم إنتـدابي للعمـل في المملكـة المغربيـة والحرمـان مـن بـدل السـكن وأشـياء أخـرى كثـيرة ، إلا أن زوجتـي كانـت تقـوم بالتدريـس مـما عوضنـا بعـض الـشيء ، وكادت الأمـور أن تسـير سـيرا طبيعيـاً حتـى كان الخـلاف بـين جـمال عبـد النـاصر والملـك الحسـن الثـاني ، مـما جعـل المغـرب تقـوم بإنهـاء التعاقـد مـع هيئـة التدريـس في التعليـم العـام ، مـا عـدا اسـاتذة الجامعـات ، ولكـن صـدر القـرار مـن مـصر بسـحب دكاتـرة الجامعـة ـ وأنـا بالطبـع واحـد منهـم ـ وتـم اسـتدعاؤنا لمقابلـة القائـم بالأعـمال وقـام يخطـب فينـا كأننـا تلاميـذ ، مـن أنـه مـا كان ينبغـي البقـاء أبـداً بعـد نـداء القيـادة السياسـية للعـودة مـما ترتـب عليـه التعجيـل بالعـودة وإلا سـوف يتـم سـحب الجنسـية المصريـة ، فأعـترض واحـد مـن الأسـاتذة عـلى هـذا الـكلام ، وهـو الدكتـور حسـان عـوض وكان الرجـل حجـة في الجغرافيـا ، وقـام بعمـل واحـد مـن أعظـم الأطالـس للمغـرب ، وقـال : نحـن لا نتهـدد عـلى هـذا النحـو فنحـن أسـاتذة جامعـة ويمكننـا الحيـاة في أي مـكان بالعـالم يحـترم العلـم والعلـماء ، وتبعـه في ذلـك زميـل آخـر وأعتقـد أنهـما الآن يحمـلان الجنسـية الفرنسـية .
عندمـا أراد القائـم بالأعـمال تحديـد موعـد سـفري إلى مـصر قلـت لـه :

سيكون ذلك في نفس الموعد الذي تعود أنت فيه وفي نفس الطائرة ، فتعجب لذلك قائلاً : ما الذي يجعلك تربط نفسك بي ، أنا ورائي مهماتي وأنت عليك العودة في أقرب وقت ممكن ، فقلت له : ولكنك تعرف أن زوجتي فرنسية ، وهي الآن في زيارة أهلها وعند عودتها ويتقرر موعد السفر البعثة الدبلوماسية أسافر معكم ، ثم وأنا في الطائرة تذكرت أنني على موعد للقاء وجه علي شعيب مدير الجامعة، وكنت قد قلت فيه زجل مشهور :

السبحة في جيب وفي جيب منزول
ودهان للشيب وحريم في علم الغيب
بيموتو في الأسطى شعيب
يا عم شعيب مش عيب
في الجامعة مدير منفوخ
وفي أبو العباس بيدوخ
ما بين مجاذيب وشيوخ
لمعالجة سيدنا شعيب
يا عم شعيب مش عيب

وعن ذكرياتي بالمغرب ، وبعض الأماكن فيها فعلى سبيل المثال ، مكناس مدينة جميلة تقع في وسط البلد وهي قريبة من فاس ، وكان لي فيها صديق هو تقي الدين الهلالي ، وهذا الرجل ثوري ووطني وكانت القوات الفرنسية المحتلة قد قبضت عليه ، وفقد بصره نتيجة للتعذيب وابنته هي الدكتورة خولة ، التي تدرس أدب عربي وأغلب الظن أنها تحمل الجنسية العراقية .

وهناك طنجة ولها طراز خاص في شكل المباني ولغتها العامية

تشبه عامية المصريين ، أما فاس ومكناس فما زال لسانهم يستخدم القاف كثيراً ، وبالنسبة لمراكش فتنقلب القاف كاف ، وهي في شكلها العام صحراوية ، وهناك أغادير لا أعرف عنها أي شيء خاصة بعد الزلزال ، وهذا الزلزال عجيب حيث انشقت الأرض ، وابتلعت البلدة ولم ينجو منها إلا المؤذن الذي كان يؤذن للصلاة في المسجد ، حيث هوت المئذنة في الحفرة ولكنها بقيت كالقلم واقفة ويعلوها المؤذن ، ومن أشهر أطعمة المغرب ـ الحريرة ـ وهي عبارة عن مجموعة حبوب فول وعدس ولوبيا وقطع صغيرة من اللحم توضع في الإناء ويدورن بها في العربات وتحتها نار ، وهي طعام النهار ، وهناك أكلة فاخرة تسمى البسطيلة وهي من الفطائر الحلوة بالمكسرات ، وأشهر الحلويات لديهم تسمى قرن الغزال ، ثم هناك أيضا الأسماك وهي متعددة بأشكال وأنواع ربما لا يوجد لها مثيل في بلد آخر، وأنت تذكر سمك الفراخ عندنا في حلقة السمك بالإسكندرية ولكن حجمه صغير ، وجدت هناك نفس الشكل لكن أصغر سمكة فيه تعادل أثنين كيلو ، وأجمل سمك لديهم يسمى الشابل كما يوجد أيضا حنش البحر الذي يبلغ وزنه فوق العشرين كيلو ، وبالنسبة للأسواق الشعبية سوق يشبه سوق الكانتو واسمه الجوطية ، وتستطيع أن تشتري من هناك الشيء بربع ثمنه .

أما عن عملي فقد كنت أقوم بتدريس مادة فقه اللغة إلى جانب تدريس العبري ، وكان لي مساعدان بدرجة أستاذ مساعد ، في فاس كان يسمى ـ أو حنيش ـ أما في الرباط فكان مساعدي يسمى ـ أو حيون ـ وهما يهوديان .

أو حيـون هـذا عندمـا رآني لأول مـرة كان ممتعضـاً جـداً ولا يريـد التحـدث معـي، وكان يتحـدث المغربيـة أو العربيـة بشـكل متعـب جداً ، ولذلـك قلـت لـه : ألا تتحـدث لغـة أخـرى ؟ قـال : الفرنسـية ، فقلـت لـه تحـدث بهـا معـي ، ثـم وجهـت سـؤالي : هـل تعـرف العبريـة ؟ فـكاد أن يطـير مـن الفـرح ، وكان سـعيداً جـداً أن يـرى مـن يتحـدث العبريـة بهـذا الأسـلوب ، وأخـذ يقبلنـي وهـو في منتهـى الـسرور ، وفي اليـوم التـالي اتصـل بي عـلى مكتـب سـكرتير الكليـة ـ محمـد الحـراشي ـ وهـو جزائـري ، وهـو الخـبر الـذي أراد أو حيـون أن ينقلـه لي عـبر الهاتـف في ذلـك الإتصـال أن الحاخـام عـلى التليفـون فقلـت لـه :

إن هـذا شرف عظيـم ، وأنـت رجـل ديـن ولا يمكـن تـزورني انمـا أنـا أسـعى إليـك فتأثـر جـداً وقـال : شـكر اللـه لـك .. اللـه يجـبر بخاطـرك ، وأشـياء مـن هـذا القبيـل ، وقـدم الدعـوة لتنـاول طعـام الغـداء معـه في مكتبـه ، وهنـاك في الحاخاميـة والتـي تسـمى بالعـبري ـ ربـا نـا ـ لأن الربـاي .. هـو الحاخـام ، وتوجـد مائـدة في المـكان وقلـت لـه : لا يضطـرك وجـودي إلى الخـروج عـن التشريـع أو التجـاوز عـن بعـض الأمـور الفقهيـة فـازداد إعجابـه متـى اتضـح لـه المامـي بالفقـه والشريعـة اليهوديـة ، والسـبب في ذلـك أن الأواني التـي يـؤكل فيهـا اللحـم لا يـؤكل فيهـا جـبن ، والحلويـات لهـا أطبـاق خاصـة ، حتـى السـكين التـي تقطـع بهـا اللحـم لا تقطـع بهـا الجـبن .



وبعـد تنـاول الطعـام سـألني إذا كنـت أرغـب في أي خدمـة يمكنـه أن يؤديهـا لي ، فطلبـت منـه مسـاعدتي للذهـاب إلى بلـدة تسـمى الـوزان وكان يوجـد بهـا جاليـة يهوديـة كبـيرة متمسـكة بالتقاليـد ، وقـال : إنـك لـن تجـد منهـم الكثـير لأنهـم كانـوا يخرجـون مـن طنجـة إلى نيـس

ومـن هنـاك يتـم تصديرهـم إلى إسرائيـل ، ولا يمكـن خروجهـم بـأي حـال مـن الأحـوال ، ويمكـن لأهلهـم زيارتهـم ثـم العـودة مـرة أخـرى ، وحتـى أولادهـم ممنـوع تعليمهـم إلا نفـس الصناعـة ، وعملـوا عـلى إنشـاء جمعيـة تسـمى الفهـود السـود وهـي ضـد إسرائيـل .

وزرت وزان وهـي تبعـد حـوالي خمـس سـاعات بالاوتـوكار الذهبـي ، ويوجـد هنـاك مصانـع نسيج تقـوم عـلى صناعـة الجلابـة أي الجلبـاب الوزانيـة ، وهـي مصنوعـة يدويـاً مـن الصـوف الخالـص وكذلـك يقومـون بصناعـة الطاليـات وبعـض الأشـياء الأخـرى ، ولكنهـم كانـوا قلـة ويغلـب عليهـم الحـزن ، ثـم ذهبـت إلى قـبر سـيدي عمـرام ـ سـيدي عمـران ـ وهـو فقيـه مـات في العصـور الوسـطى ، وحولـه مقابر نـاس يهـود مـن مشـاهير التاريـخ في الشريعـة اليهوديـة .

وجـدت هنـاك تقليـد عجيـب متبـع عندهـم مـن أيـام الوثنيـة ، وجـدت امـرأة كاهنـة كئيبـة المنظـر وشـكلها غريـب وحالتهـا مزريـة أشـبه بالسـاحرات في قصـص أفـلام الأطفـال ، وكانـت تـصرخ وتولـول بالبربـري ووراءهـا جمـع مـن النـاس يصعـدون خلفهـا إلى ربـوة عنـد شـجرة زيتـون قديمـة ، والنـاس تهمهـم وتتمتـم وكل واحـد معـه زجاجـة بهـا مـاء عـادي أو هكـذا ظننـت ، وكانـوا يطلقـون عليـه ـ ماحيـا ـ أي مـاء حيـاة وهـو عبـارة عـن كحـول أبيـض فيجتمعـون حـول شـجرة الزيتـون ، ويرشـون عـلى أصـول الشـجرة عنـد الجـزع مـن هـذا السـبرتو حتـى ينتهـي السـائل فيشـعلون النـار والشـجرة لا تحـترق ، وتقـوم هـذه الكاهنـة بباقـي مسرحيـة البـدع والخرافـات والجنـون الوثنـي .

## سيناريو وحوار

**« تعرف أنا كانت ظروفي الحياتية في منتهى الصعوبة في فرنسا ، التي وصلت إليها على ظهر بارجة حربية تابعة للاسطول البريطاني اسمها ـ اسكانيا ـ وكان عليّ واجبات كثيرة تجاه عملي وعلمي وأسرتي في مصر ، وزوجتي التي تعيش معي في فرنسا ، وكل ما يصل لدى من راتب شأن أي طالب مبتعث لا يكفي لأي واحدة من تلك الأمور ».**

هكذا استهل الدكتور ظاظا حديثه معي حول تجربة من تجاربه التي لم تكتمل ، وأضاف ـ يرحمه الله ـ :

مع الأفلام الوثائقية كنت أعمل في البرنامج العربي بالإذاعة الفرنسية مترجماً ومعداً لبعض البرامج ، ورغم أعبائي وعدم التوافق مع الزوجة المصرية ـ فاطمة ـ وهي من الاسكندرية وأهلها (ناس كويسين) إنما هي كانت غيورة جداً ، ومشغولة بالتفكير في هذا الموضوع من الغيرة ، ويطول جلوسها طوال اليوم بالبيت دون تكيف مع فرنسا ، ولا أهل فرنسا لعوامل كثيرة جداً وأهمها اللغة .

وتلك الأمور مجتمعة أدت في النهاية إلى فقد أول جنين ، كانت ابنة تمنيت لها الحياة وحاولت بكل الممكن من ناحيتي من محاولات لبقاء هذا الكيان الأسري إلا أنها أصرت على العودة إلى مصر والانفصال ، ولما تزوجت مرة أخرى من الفرنسية وأم أولادي ـ أندريا ـ وعند وصول المولود الأول تمنيتها بنتاً ، وبالفعل تحققت أمنيتي وجاءت بنت وسميتها زينب ، وفي فرنسا من لزوم الشيء

ان يكـون لـكل شـخص اسـمين فهـي اسـمها ـ زينـب جيهـان ـ وفي يـوم مولدهـا كان المفـروض أقـوم بزيـارة لزوجتـي بالمستشـفى للإطمئنـان عليهـا وعـلى المولـودة ، ولكـن لم يكـن معـي مـا يكفـي لـشراء هديـة معقولـة ، ولا حتـى طلبـات البيـت وأمـر بحالـة مـن الضيـق رغـم فرحتـي بوصـول هـذه الأبنـة العزيـزة التـي سـوف تعوضنـي عـن تلـك التـي فقدتهـا ، وفي المقهـى تعرفـت عـلى شـخص (آخـر لخبطـة) لا هـو عـارف فرنسـاوي بشـكل بسـيط ، ولا حتـى عـارف عـربي .. يعنـي شـوية كـده شـامي عـلى مغـربي ، وقـدم لي نفسـه باسـم رالـف حبيـب ، وكان دوره في عملـه هـو توزيـع فيلـم إسرائيـلي لبعـض دور العـرض ، ولكـن للأسـف الفيلـم لا تصحبـه ترجمـة ، ولذلـك تسـويقه متـدني أو غـير ممكـن ومتعـب بالنسـبة لـه ، ولمـا أدرك معرفتـي بالفرنسـية والعربيـة والعبريـة وإتقـاني لهـا ، قـال :

« مـا رأيـك إذا كان مـن الممكـن أن تترجـم سـيناريو وحـوار الفيلـم نظـير مبلـغ محـترم ؟ » ، وأنـا طبعـا وافقـت لأنـه لا يوجـد لـدى عمـل في هــذه الفــترة ، هــذا غـير تحضـير رسـالة الدكتـوراة وزوجتــي في المستشـفى ومحتـاج فلـوس ، وحكايـة الترجمـة عـلى الأفـلام شـغلانة متعبـة جـداً لأنهـا مـن خـلال لقطـة لقطـة تكتـب وتعـود للتصويـر في شريحـة سـوداء عـلى الفيلـم كي تتـماشى مـع العـرض ، ومـع حركـة الشـفايف واللغـة الأصليـة التـي تـم التسـجيل بهـا .

وكان اسـم الفيلـم ـ البـاب السـابع ـ عـن روايـة للشـاعر شـيلي عـلى أغلـب الظـن لأنهـا حكايـة فـات عليهـا أكـثر مـن أربعـين سـنة ، لكـن هــذا الموضــوع يذكـرني بــشيء آخـر مـع السيناريسـت الإنجليـزي المعـروف ـ بيـتر هيوتـل ـ وكان البعـض يسـتعينون بـه في كتابـة

السـيناريوهات الخاصـة ببعـض الأفـلام الوثائقيـة ، وهنـا موجـود مخـرج شـاب سـعودي اسـمه عبـد اللـه المحيسـن قـام بعمـل بعـض الأفـلام الوثائقيـة ، ورغبـة منـه في التخصـص أراد أن يقـوم بعمـل بعـض الأفـلام عـن المـدن العربيـة ، ولما فكـر في مدينـة القـدس أقـترح عليـه أحـد الأسـاتذة أن يعـرض السـيناريو الـذي قـام بكتابتـه عربيـاً وإنجليزيـاً ـ بيـتر هيوتـل ـ يعـرض هـذا السـيناريو عـلى حسـن ظاظـا لإعطـاء وجهـة النظـر بحكـم تخصصـه .

مـن هنـا وعنـد قـراءة النـص كان لي تعليـق بـأن النـص يحتـاج إلى إعـادة صياغـة لأن هنـاك مـن الأمـور التـي غفـل عنهـا ـ بيـتر ـ وإن كان ـ المحيسـن ـ في قمـة الإعجـاب ببيـتر عـلى إعتبـار أن أعمالـه لا تناقـش لا تجـادل ولا تناقـش إلا اننـي «أصريـت» عـلى التغيـير إن كان هـذا العمـل محسـوب عـلىّ أو سـوف ينسـب لي شيء منـه ، وكان رد المحيسـن أن أقـوم بكتابـة خطـاب إلى بيـتر بتوقيعـي وتحـت مسـؤوليتي .

بالفعـل حـررت الخطـاب بالإنجليزيـة مبينـا وجهـة نظـري عـن مواطن الضعـف في السـيناريو ، وكان خـوف المحيسـن لـه اعتباراتـه حيـث أن بيـتر كان قـد كتـب سـيناريو ـ ممتـاز ـ لفيلـم وثائقـي سـعودي ضخـم ، ولذلـك جـاء الـرد مـن بيـتر باحـترام وجهـة نظـر ظاظـا وأنـه ـ أي بيـتر ـ لديـه الإسـتعداد للتعـاون معـي وتعديـل مـا أراه لأنـه يعلـم بأننـي أكـثر اطلاعـا ومعرفـة بمدينـة القـدس ، ودارت المناقشـات بعـد ذلـك عـلى المـكان الـذي يمكـن أن يجمـع بيننـا هـل المـكان هـو لنـدن ؟ أم الريـاض ؟ ولكـن الأمـور قـد حسـمت بـأن حـضر بيـتر إلى الريـاض ، والتقيـت بـه وتمـت كتابـة السـيناريو بشـكل ممتـاز

بعـد عـدة جلسـات جمعـت بيننـا إلا أن العمـل لم يخـرج إلى النـور بسـبب تعـذر إمكانيـة التصويـر ، والـذي كان الإقـتراح بذهـاب بعـض السـائحين الإنجليـز إلى هنـاك وتصويـر بعـض الأماكـن ، إلا أن رؤيـة عبـد اللـه المحيسـن كمخـرج كانـت أبعـد مـن ذلـك لإعطـاء العمـل حقـه في التنـاول والتوثيـق ، ولقـد توقـف العمـل وبقيـت الأوراق كـما هـي لم تمـس منـذ ذلـك الوقـت .

## المتسلل حاييم ظاظا

كانت المدة التي قضاها في الجامعة العبرية بقياس الزمن ليست مدة طويلة ، ومع ذلك لقد تمكن من اللغة العبرية بشكل لافت للنظر وهذا ليس كلامي ، وإنما كلام كل من أهتموا بدراسة العبرية أو حتى ممن يتحدثون بها تحت وطأة الإحتلال الصهيوني ، يقولون : إن اللغة العبرية تخرج رقيقة من لسانه .. والمدة لم تتعد السنتين ببضعة أشهر ، وقد مضى عليه أكثر من خمسين عاماً ، فما هو الشيء الذي جعل تلك الأرض في ذاكرته ؟ وهل شده الحنين لزيارتها يوماً ما مرة أخرى ؟ يقول في هذا :

فلسطين في ذلك الوقت .. مدينة القدس ، ويافا ، وتل أبيب وغيرها كانت تموج بالأحداث وكانت حركتي دؤوبة بين الإذاعة والتحصيل العلمي واللقاءات التي تجمعني بالكثير من الناس بين عرب ويهود ، كل ذلك هو الذي جعل للأحداث مكاناً محفوراً في الذاكرة ، وينطبق ذلك بطبيعة الحال على خريطة الأرض التي كنت أسير عليها بشكل مستمر ويومي ، حتى أن بعض اسماء الشوارع والأزقة لا أنساها ، ثم ان الشخصية الإسرائيلية كثيرة التساؤل فهم يدخلون في أحاديث معك ويتعرفون عليك بأي وسيلة ، وكما قلت لك من قبل إن اسحاق نافون تعرفت عليه في مكتب البريد وهو الذي قدم نفسه لي عندما كنت أرسل خطابات إلى مصر مؤمناً عليها خوفاً من الضياع أيا أحداث الحرب العالمية الثانية ، وكذلك تعرفت على موشيه ديان ، ومن هنا تعرف إلى أي مدى يتدخل اليهودي في حياتك ، وبالتالي كيف يحصل على هذا الكم

الهائـل مـن المعلومـات الـذي يـأتي محصلـة لهـذا التدخـل في أمـور حياتـك الشـخصية .

لكـن بعـد إعـلان قيـام دولـة إسرائيـل وعـودتي إلى مـصر ، ثـم بدايـة المناوشـات والحـروب لم أتمكـن مـن دخـول الأراضي المحتلـة إلا متسـللاً ، وذلـك بعـد حـرب ١٩٦٧م ربمـا بعشريـن يومـا فقـط ، أو شـهر إن لم تخونـني الذاكـرة ، أمـا عـن كيفيـة الدخـول أو التسـلل تقريبـاً في يوليـو ١٩٦٧ كان معـي شـخصان ، فلسـطيني اسـمه غالـب ولبنـاني هـو عبـد اللطيـف العوينـي ، وصلنـا بالسـيارة إلى جـسر الملـك حسـين وكان هـو المعـبر ، ورأيـت غالـب وهـو يتفاهـم مـع جنـود حـرس الحـدود ، ولم اسـمع مـا يـدور مـن حديـث لأننـي كنـت في السـيارة وحـدي ، ولكـن لفـت نظـري أنهـم أعطوهـم بعـض النقـود ولفافـة أخـرى عرفـت بعـد ذلـك أنهـا مخـدرات ، وقامـوا بتغيـير لوحـات السـيارة وأشـاروا لهـم بالمـرور .. وواحـد مـن الجنـود يؤكـد عـلى غالـب بكلمـة ـ كـما اتفقنـا ـ ، وفهمـت بـدوري معنـى هـذا الاتفـاق عـلى اعتبـار أن ورائهـم ـ عيـون ـ ، ولـن يكـون الجـسر هـو مـكان العـودة ، وسـارت بي السـيارة وأوصلتنـي إلى تـل أبيـب ، وكان اليـوم هـو الجمعـة عنـد اقـتراب الغـروب تقريبـاً، وكنـت قـد اخـترت هـذا اليـوم لقلـة الحركـة وسـوف يليـه السـبت حيـث الهـدوء التـام .. تركـوني بالقـرب مـن فنـدق كنـت عـلى معرفـة بـه واسـمه بـالاس ولكنهـم وضعـوا لـه ـ اسـم جديـد ـ فنـدق نتانيـا بحـي زخـروف يعقـوف والاسـم الـذي نزلـت بـه في الفنـدق هـو ـ حاييـم زازا ـ ومحـل إقامتـي هـو القـدس ، وتلـك المعلومـات والبيانـات هـي نفسـها تـم تسـجيلها في الأوراق التـي أحملهـا منـذ دخـولي مـن جـسر الملـك حسـين .

وقد أعطوني في الفندق البطاقة التي أقوم بتدوين المعلومات فيها ودونت ذلك بالعبرية ، وأما عن سبب حضوري من القدس فقلت أني جئت للصلاة في ـ زخروف يعقوف ـ الذي بناه ـ روتشيلد ـ وسألوني عن حاجتي إلى العشاء وقلت لهم إذا كان الطعام ـ كشير ـ أي حلال حسب الشريعة اليهودية مضيفاً بأني لن أتعشى إلا بعد أداء الصلاة ، وقمت بجولة قصيرة لأستعيد ملامح المكان ، ثم دخلت بعدها حجرتي للعشاء ثم النوم ، لم أصحو إلا عند الظهر للذهاب إلى المكان المحدد ، وكان من اللائق أن يتناسب موعد نزولي مع ملابسي التي كنت أرتديها والخاصة بالصلاة ، وهي (الطاليت) أي عباءة الصلاة ذات المواصفات الخاصة تتكون من نسيج واحد صوف أو قطن دون أن يخلط معه خامات أخرى ، وهناك شرط مهم جداً وهو ألا تلمس هذه العباءة أنثى ، وتوضع في صندوق خاص ، ولونها أبيض لها خطان باللون الأزرق ، وتبقى عند المتعبد أو المؤمن اليهودي حتى يكفن فيها عند الموت .

والتفلين هو عبارة عن شريطين : واحد به علبة من الخشب وموجود فيها قراءة السماع ، ويربط على الجبهة (القورة) ، والثاني يربط على إبهام اليد التي لا يأكل بها .

المهم أنه عند وصولي إلى الحديقة العامة والجلوس إلى أحد المقاعد كان هناك اثنان من الجنود يحملون أسلحة أتوماتيكية واقتربوا مني عند المقعد ثم قاموا بسؤالي : ماذا تفعل هنا؟ فقلت لهم : كما ترون ، رجل يهودي يقرأ في التوراة .. ما الغريب في هذا ؟

فظهر على ملامحهم الأسى والأسف وقال أحدهم :

ـ عفوا يا عم .. لكن قد يسألك أي جندي عن سبب جلوسك هنا

لأن هذا المكان مهم ، فأخرجت لهم بعض الأوراق التي أحملها والتي كانت مزورة بطبيعة الحال عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بشكل متقن جداً لدرجة أن الجندي نظر إليها وأشاح بيده أنه لا يصح ذلك مع رجل في مثل سني ، يتم كل هذا في الوقت الذي أستكمل معه حديثي بأنني أراه يحمل السلاح رغم اننا في حديقة عامة فما الداعي لذلك ، فقال :

إن المكان هنا مهم جداً لأنه على بعد بضع أمتار يوجد حوض زهور هو عبارة عن مضخة وخزان مياه واستكملت : من أجل صنبور مياه تحملون السلاح ؟! فقال :

إنه خزان كبير على عمق أربعين متر تحت الأرض ، « ونخاف من العرب ولاد الكلب ».

ثم تركاني وتوجها خلف الأشجار وهم ينظرون باتجاهي ، وأنا أحاول أن أنهض بإتجاه المضخة لمعرفة نوعها إذا كانت من الحديد الزهر أو من المواسير الأسمنتية ، كما شرح لي المهندس قبل الإنطلاق لهذه العملية ، ولما توارى الجنديان وراء الشجرة في محاولة للإختباء عني لرغبتهما في التدخين الذي هو ممنوع أو محرم يوم السبت ، قمت واستنهضت عزيمتي لرؤية المضخة ، وما هي إلا خطوات وكنت وسط حوض الزهور ورأيت المضخة وحفظتها عن ظهر قلب ، وكذلك الأبعاد بالخطوة لأنه من غير الممكن القيام برسم هذا المخطط ، وكان ينبغي أن أحفظ ذلك في ذاكرتي حتى التقي بالمهندس الذي ينتظرني لتحديد حجم وقوة المواد التفجيرية التي استخدمت فعلاً بعد ذلك .

وعند خروجي من مكان حوض الزهور ظهر لي أحد الجنود وهو

يسـألني إلى أيـن ؟ فقلـت لـه : سـوف أركـب سـيارة للذهـاب إلى مـكان حددتـه ، فـما كان منـه إلا أن ابتـدرني بالقـول :
أليـس ركـوب السـيارة في السـبت مـن المحرمـات ؟ فقلـت لـه : أن مضطـر ولسـت مثلـك تدخـن السـجائر في هـذا اليـوم فتركنـي وهـو لا يقـوى عـلى النظـر بإتجاهـي .
المهـم أنـه عنـد نقطـة كانـت محـددة بينـي وبـين الجماعـة التقيـت بهـم وحملـوني معهـم ، ولكنهـم لم يتحركـوا مـن مكانهـم فسـألتهم عـن سـبب هـذا التوقـف ..! فعرفـت منهـم أن طريـق عودتنـا مـن قـرب الناقـورة ، وهـي منطقـة ليسـت مثـل جسر الملـك حسـين ، وإنما دوريـات الحـدود يتـم التبـادل والمراقبـة فيهـا عـن طريـق الطائـرة الهليكوبـتر ، فعندمـا تمـر الطائـرة نتحـرك نحـن بسرعـة لأنهـا في حاجـة إلى خمسـة وعـشرون دقيقـة حتـى تسـتكمل دورتهـا في ذلـك الوقـت نكـون نحـن في الطريـق بـين النبطيـة وصـور .
وكانـت تلـك الزيـارة أو هـذا التسـلل الأول بعـد أن عشـت هنـاك إلى قـرب العـام ١٩٤٥م .
أمـا الزيـارة الثانيـة فكانـت في عـام ١٩٧٠ والسـبب في ذلـك أنـه كانـت عـلى الحـدود اللبنانيـة الإسرائيليـة اسـتحكامات وكان موجـود العسـكري العبقـري ـ عبـد المنعـم ريـاض ـ وكان لـه رأي في بعـض الدشـم عـلى اعتبـار أنهـا محصنـة ومسـتحكمة بطريقـة طبيعيـة وتـم نقـل المدافـع إليهـا ولـن تسـتطيع إسرائيـل ضربهـا ولـو بالقنبلـة النوويـة ، وذلـك حسـب توجيهـات عبـد المنعـم ريـاض وكان موجـود في هـذه الجلسـة مـن بعـض المفاوضـين مـع الإسرائيليـين للتفـاوض عـلى بعـض الأماكـن مـن الحـدود لتحقيـق الهدنـة واحـد مـن عيلـة

ـ الصلح ـ لا أذكر اسمه وهو الذي أخذني إلى هناك فقلت له : أكيد من أجل الترجمة .. فقال : لا لا ، لأن الإسرائيليين بيتكلموا عربي كويس وإنما حبيت أنك تحضر الإجتماع من باب التسلية ، وكان الإجتماع في المنطقة قريات شمونه ـ يعني قرية الثمانية ـ وفي نفس اليوم تمكنت من الدخول معهم لزيارة عكا ، وعدت مرة أخرى إلى بيروت التي حضرت منها .

ليس لي رغبة في التعليق لكني أتساءل مع نفسي : كيف لهذا الإنسان أن ينام ليلة كاملة في فندق داخل أرض العدو ، هل كان هذا شعور بالأمان وهو يتحدث مثلهم وعاش حياتهم ؟ أم هي الثقة بالنفس أم شعور بأن الأرض لن تخونه فهي أرض عربية قبل كل شيء أم أن المهمة التي جاء من أجلها أكبر من تداعيات الرجل والأضطراب ، أم تمام الإيمان بأنه ما كان لك لن يخطئك إلى سواك ، أم كل هذه الأمور مجتمعة .

## نشاط ثقافي في بيروت

إذن كان الدكتـور يقيـم في بـيروت باعتبـار أنـه واحـد مـن اسـاتذة الجامعـة المنتدبـين للتدريـس في جامعـة بـيروت العربيـة ، التـي تـشرف عليهـا جامعـة الإسـكندرية ، ونظـام الجامعـات في بـيروت كان قائماً على ثـلاث محـاور في ثـلاث جامعـات هـي ، الجامعـة الأمريكيـة ، والجامعـة اللبنانيـة ، وجامعـة سـان جوزيـف ، وهنـا فكـر جـمال عبـد النـاصر في إنشـاء جامعـة تتصـف بالشـكل العـربي الإسـلامي ، وكان البحـث عـن أرض لقيـام هـذه الجامعـة عليهـا مـن أكـبر المشـكلات التـي صادفـت القائمـين عـلى المـشروع واختـاروا مدرسـة ثانويـة لتطويـر مبناهـا ، وتـم جمـع بعـض التبرعـات عـلى شـكل الجمعيـات الخيريـة وتـم إرسـال وفـد للقـاء الرئيـس عبـد النـاصر كي يرعـى هـذا المـشروع ، وتـم شراء ووضـع الأسـاس في أرض أبـو شـاكر ، والذيـن تزعمـوا هـذه الحركـة ـ راشـد حـوري ـ ، و أبـو توفيـق حـوري ، والعيتـاني .

ولم يكـن الدكتـور بالـذي يقـصر نشـاطه في توجيـه الطـلاب خـلال العمـل الأكاديمـي فقـط ، وإنمـا كان هنـاك النشـاط الأدبي والفنـي الذي انغمـس فيـه بشـكل كبـير كواحـدة مـن طبيعـة تركيبتـه الشـخصية، ولهـذا قـد اصطـدم بـإدارة الجامعـة خاصـة عندمـا نظـم إحتفاليـة كبـيرة للشـعر ودعـى إليهـا الشـاعر الكبـير نـزار قبـاني ، وكان الطـلاب خـارج القاعـة لا يجـدون مكانـاً للوقـوف ، وهـذا النشـاط لم يعجـب إدارة الجامعـة ، لكنـه كان المثقـف المشـاكس الـذي تأخـذه هواياتـه إلى هاويتـه ، ويذكـر بإعتـزاز تلـك الحفـاوة التـي يحظـى بهـا مـن قبـل الأكـراد المقيمـون في بـيروت ، ولعـل هـذا الأمـر تكـرر معـه في العـراق

وإيـران بـل البعـض منهـم مـن أصحـاب المهـن البسـيطة سـواء في الجامعـة ، أو أي مـكان يتواجـد فيـه كانـوا يجلـون هـذا الكـردي الـذي يجـبر الجميـع عـلى الإسـتماع إليـه ووصولـه إلى هـذا المركـز المرمـوق . كان الدكتـور ظاظـا محـل عنايتهـم بمنتهـى الحب والإجـلال ، وفي الأردن أيضـاً هـم مـن أدخلـوه للبـلاط الملـكي ، ورأيتهـم وهـم يلتفـون حولـه بالريـاض بالمملكـة العربيـة السـعودية ، والغريـب أن تركيـا رفضـت دخولـه إلى أراضيهـا لا لـشيء سـوى أنـه ظاظـا ، وهـذا معنـاه أنـه شـخص غـير مرغـوب فيـه داخـل أي مـكان تـركي ، وكان يضحـك مـن عقـول هـؤلاء الأتـراك .

## شرق وغرب .. سندباد المعرفة

عندما جاءته دعوة لحضور مؤتمر في اليابان ، كان خط سير الرحلة يبدأ من روما ، ركب الطائرة وهو خالي الذهن تماماً عن مسألة الفيزا أو تأشيرة الدخول للأراضي اليابانية ، وفي مطار طوكيو ، ورغم أنه حسب القانون يعتبر شخصاً حاول التسلل عبر منفذ من منافذ الدخول إلا أن ضابط الجوازات المكلف بمثل هذه المهام لم يفكر في إعادته مرة أخرى من حيث أتى ، إنما تفاهم معه وتعامل مع الأمر حسب ما يتيح له القانون ولكن بشكل حضاري ، فأحضر له ملفاً لمن سبق أن تعرضوا لمثل تلك المخالفات ووقع عليهم الحكم بالحبس والتغريم كما هو واضح في تلك المحاضر والأوراق ، هنا كان يجب على د. ظاظا أن يشرح له ظروف التسرع بالحضور لأن موعد الطائرة التي نقلته من روما صادفت يوم عطلة في إيطاليا مما يتعذر معها الذهاب إلى السفارة أو مكتب التمثيل الدبلوماسي الياباني ، وبالإضافة لهذا فهو ضمن لجنة من جامعة الدول العربية ترعى مؤتمراً عن القضية الفلسطينية ، وسوف يعقد المؤتمر في صباح اليوم التالي ، وهو ضمن المتحدثين في يوم الإفتتاح ، ناوله الضابط الملف فأخذ يتصفحه حتى وجد صيغة لطيفة على شكل التماس لوزارة الداخلية والعدل على إعتبار أنها قضية يجب أن يحكم فيها النائب العام .

هنا أسُقط في يد ظاظا فماذا ينتظره ؟ ساعات القلق القادمة ، وأمامه عمل ليس بالهين ، هنا تظهر روح التفاهم الإنساني بعيداً عن نص القانون ، رغم أن الضابط الياباني كان في منتهى الإنضباط

، فـما هـو الإجـراء الـذي يتخـذه هـذا الضابـط المنضبـط والملتـزم بالتعليـمات ؟ ، قـام بإرسـال الإلتـماس إلى وزارة الداخليـة مـه منـدوب ، مصطحبـا جـواز سـفر الدكتـور ظاظـا ، وسـجل لديـه عنـوان الفنـدق المقـترح لنـزول هـذا الضيـف ، وبعـد سـاعتين أو أقـل قـال لـه : يمكنـك الآن الذهـاب إلى الفنـدق فقـد تـم الحكـم في القضيـة المرفوعـة ضـدك ، ولقـد قضيـت فعـلا مـدة العقوبـة وهـي التوقيـف أربعـة وعـشرون سـاعة ، ونظـرا للعمـل الـذي ينتظـرك فإننـي أرجـوا منـك ألا تذهـب إلى أي مـكان حتـى صبـاح الغـد ، وسـوف أرسـل إليـك بجـواز السـفر ويحمـل تأشـيرة الدخـول عـلى عنوانـك بالفنـدق الـذي يعتـبر مـكان توقيفـك .

هـذه القصـة ، وهـذا الموقـف يتحـدث عنـه الدكتـور ظاظـا لبيـان موقـف الأتـراك وتعنتهـم ، عـلى الرغـم مـن أنه من أشـد النـاس احترامـاً لقانـون الآخريـن ، ويشـهد بذلـك تاريـخ اقامتـه سـواء في فرنسـا التـي عـاش بهـا خمسـة عـشر عامـاً ، أو السـعودية التـي أقـام بهـا مـا يقـارب الثلاثـون عامـاً ، ثـم لبنـان والمغـرب أيضـا إذا تجاوزنـا عـن الأعـوام التي قضاهـا في مالطـا والسـودان والعـراق وبعـض الـدول الأوربيـة ، وفي رحلتـه إلى اليابـان اسـتطاع بقـوة الحجـة ، وسـلامة اللسـان أن يجـذب إليـه آذانـاً مـا كانـت تـدري عـن الفلسـطينين ولا القضيـة الفلسـطينية أي شيء ، ويشـير هنـا إلى تعقيـب السـيدة رئيسـة الجمعيـة النسـائية في اليابـان التـي قالـت : بعـد الاسـتماع إلى الدكتـور ظاظـا اتضـح لي أننـا كنـا مضللـين أمـام الدعايـة الإسرائيليـة القويـة التـي مـن خلالهـا تـم منـح زوجـة السـفير الإسرائيـلي في اليابـان العضويـة الشرفيـة للجمعيـة النسـائية ، وأنـا الآن وأمـام المجتمعـين أعـترف بهـذا الخطـأ وأعلـن عـن

سحب هذه العضوية التي لا تستحقها زوجة سفير دولة تقوم دعايتها على التضليل .

ولمع نجم ظاظا في هذا المحفل الدولي ، وكان ضيفاً على معظم السفارات العربية في اليابان ، إضافة إلى جامعة ـ كيوتو ـ التي أجتمع العديد من الطلاب للإستماع لهذا الرجل القادم من بعيد ، ولأنها جزيرة صناعية ، وحتى لا تثير كلماته حماس الطلاب حدثهم عن شيء آخر ، وهو التاريخ التجاري القديم بين العرب وبلاد شرق آسيا خاصة اليابان في رحلات برية وبحرية تستغرق الأيام والشهور ، مما مزج بين الكثير من الكلمات وأشهرها اسماء البهارات والأقمشة ، وبعدها زار الميناء الجاف المخصص لبناء أكبر ناقلات بترول رآها في حياته دون أن يصدر عن العمال تلك الأصوات المزعجة التي تصاحب معدات الطرق والنشر وتثبيت المسامير ، وكأنه نوع من التمثيل الصامت .

وعن أهم الملاحظات التي سجلها في مفكرته الخاصة ، وكأنه مخطوط لمشروع كتاب عن اليابان ، جاء فيها ، ( اليابان اسمها باللغة اليابانية ني هون ، والفرد الياباني غير لماح ، ولكنه مدقق يحترم الأوامر والنظام ، وهناك أيضا شجر الصفصاف وارواح الجنيات من النساء تزرع شتلات الأرز والخيزران في إبريل واكتوبو ونوغمبر ، الياباني مرح بطبيعته، فنان في الطعام والشراب ،يقدمون الساكي في حفلات العرس ، الياباني يندمج في العمل ، نظيف ، وهم يقولون أن الموتى يزورون أرض اليابان يوم ١٥ أغسطس ، وتوقد نيران على الجبال في مواضع خاصة ليرجعوا إلى عالمهم يوم ١٦ ، كيلو اللحم بـــ ٦٠ فرنكاً فرنسياً = ١٢ دولاراً = ٩ جنيهات = ١٠٠٠

يـن .

لم تكـن تلـك محطتـه الأولى ، ولم تكـن الأخـيرة فهنـاك مؤتمـر الأقليـات الـذي عقـد عـلى أرض الجماهيريـة الليبيـة وتحـت رعايـة خاصـة مـن الرئيـس الليبـي معمـر القـذافي ، الـذي افتتـح المؤتمـر بكلمـة وسـط هتـاف الجماهـير وحتـى أعضـاء الوفـود كانـوا يهتفـون ويرقصـون ، وقطـع القـذافي خطابـه لأداء الصـلاة ، وأثنـاء ذلـك التقـى الدكتـور ظاظـا بالمطـران ـ كابوتـشي ـ الـذي مـا أن رآه حتـى أخـذه بالأحضـان ، وفي الوقـت الـذي كان يحتفـى فيـه بالمطـران كان هـو يحتفـي بظاظـا لمـا قـام بـه خـلال برنامجـه الإذاعـي المعـروف ـ مـن قلـب إسرائيـل ـ للحملـة التـي قادهـا ظاظـا بالبرنامـج وتنـاول في العزيـز مـن الحلقـات اعتراضـه عـلى الحكـم الصـادر ضـد كابوتـشي ، مـما سـاعد عـلى تبنـي الكثـير مـن الهيئـات النقابيـة والإعلاميـة لقضيـة المطـران كابوتـشي التـي قضـت بالضغـط عـلى إسرائيـل لإخـراج المطـران مـن سجنه كـما أن المؤتمـر في ليبيـا كان فرصـة ممتـازة لزيـارة أختـه المتزوجـة والمقيمـة في ليبيـا بصفـة دائمـة .

وهنـاك مؤتمـر آخـر حـضره في إيطاليـا ومعـه الشـيخ عبـد العزيـز المسـند والدكتـور عبـد القـدوس أبـو صالـح ولم يحدثنـي الدكتـور ظاظـا عـن تفاصيـل كثـيرة لهـذا المؤتمـر ولكنـه أشـار إلى مشـاركته بـه .

# من قلب إسرائيل

في البرنامـج الإذاعـي ـ مـن قلـب إسرائيـل ـ الـذي يعـده ويقدمـه الدكتـور ظاظـا وذلـك مـن خـلال ماتكتبـه الصحـف والمجـلات في إسرائيـل ، ومعلقـاً عـلى بعـض الأحـداث أو الحـوادث التـي يهتـم بهـا الـرأي العـام في إسرائيـل ، وكانـت كلماتـه المؤثـرة ذات مدلـول وطنـي واسـتراتيجية سياسـية يسـعى مـن خلالهـا إلى كشـف وجـه الزيـف عنـد هـذا العـدو ، وفي جـزء كان يعـده مـن حلقـات حـول مـشروع مفاوضـات السـلام ، وتطبيـع العلاقـات مـع إسرائيـل يقـول :

اتضـح لي مـن خـلال العـدد الكبـير مـن الحلقـات التـي تحدثـت فيهـا عـن مفاوضـات السـلام أن هنـاك نقـاط يجـب وضعهـا في الإعتبـار منهـا : ـ

١ ـ القوى العسكرية مستعدة إذا فشلت محاورات السلام .

٢ ـ التكتيـك السـياسي والدبلوماسـية العربيـة والإعـلام في محادثـات جنيـف وقبلهـا لتوضيـح أسـباب الفشـل إذا حـدث فشـل لا قـدر اللـه ليكـون واضحـاً أمـام الـرأي العـام العالمـي ، وفي رحلـة أخـيرة إلى طوكيو أحسسـت أن أصـوات الدعايـة الإسرائيليـة في وسـائل الإعـلام اليابانيـة ضخمـة رغـم عـدم تقصـير الدبلوماسـية العربيـة .

وأرى أن الدعايـة الإسرائيليـة غـير متوازنـة مـع حجـم المصالـح مـع إسرائيـل رغـم أن اليابـان تقـوم بتصنيـع ناقـلات بـترول وأجهـزة ومعـدات نؤكـد أن السـوق العربيـة مهمـة جـداً لهـا .

ولمـا سـألت عـن السـبب في ذلـك أجمعـوا عـلى أن الإنتصـار الأمريـكي وخضـوع الحكومـة اليابانيـة أدى إلى هـذا التباعـد ، كـما أن النشـاط

الإعلامـي العـربي موسـمي بمعنـى أنـه لمـدة أسـبوع أو عـلى شـكل أسـابيع ، أو أيـام ويجـب أن يكـون هنـاك اهتـمام بتكثيـف ذلـك ، حتـى أن السـيد شـاؤول رامـاتي ـ السـفير الإسرائيـلي في اليابـان ـ والدبلوماسـية الإسرائيليـة يحصـل عـلى تسـهيلات تجعـل الممثـل الدبلومـاسي الإسرائيـلي شـخصية هامـة جـداً ، وقـد يكـون الإعـلام العـربي في القضايـا العربيـة الإسرائيليـة مظلومـاً في المنطـق الأفريقيـة والآسـيوية لكـن الفرصـة سـانحة وجـنرالات إسرائيـل القدامـى ـ أمثـال مـوشى ديـان وآريـل شـارون وايجـال باديـن ـ كل هـؤلاء يحاولـون التفاهـم مـع العـرب ، وهنـاك جـنرال لم نكـن نسـمع عنـه هـو ماتيتياهـو بليـت ، وهـو مـن الحمائـم كـما يحـب أن يصـف نفسـه أي مـن الجنـاح المتسـاهل مـع قضايـا العـرب ، فهـو جـنرال سـابق وعمـره أربعـة وخمسـون عامـاً ، وبعـد تقاعـده أو طـرده مـن جيـش الدفـاع عمـل رئيـس قسـم الدراسـات العربيـة في جامعـة تـل أبيـب أجـرى معـه مسـتر كيوبـك ـ مراسـل النيوزويـك ـ حديثـاً طويـلاً جـداً حـول تخـلي إسرائيـل عـن الأراضي التـي احتلتهـا بعـد حـرب ٦٧ والحديـث عـن قـرار ـ ٢٤٢ ـ وموافقـة الجانـب العـربي عـلى هـذا القـرار رغـم أن المجلـس الوطنـي الفلسـطيني لم يوافـق ، ولكـن الحـرب الأهليـة في لبنـان وفقـد دمـاء كثـيرة مـن الجانـب الفلسـطيني ، وفكـرة إنشـاء حكومـة في المنفـى لـن تتمتـع بـكل القـوى أو السـيادة في حريـة الحركـة ، ويكفـي أن بنـود المنظمـة الفلسـطينية تحتـوي عـلى ١٥ بنـداً كلهـا مدمـرة لإسرائيـل، ولكـن كل شيء قابـل للتغيـير ، واتفاقيـة السـلام تعطيهـم شـخصية الوجـود عـلى أرض الواقـع ، ويقـول ماتتياهـو بيليـت أن الفلسـطينيين يراقبوننـا في منتهـى الوعـي ، وعنـد سـؤال المحـرر

إذا كان ممكن قيام دولة فلسطينية بعد ذلك على أرضها قال : يتوقف ذلك على نوع الحكومة العربية الفلسطينية التي هي رأس الدولة ، ومن هنا نرى أن كلمة حمائم كلمة فضفاضة لأنهم يشترطون لقيام دولة فلسطينية ألا يكون لها مدفعية أو سلاح طيران ، وتضع نفسها تحت الإدارة الإسرائيلية متجاهلين قانون التكافؤ وتوازن القوى ، المهم أن تكون القدس موجودة والإعتراض على فكرة تدويل القدس التي كانوا ينادون بها قديماً أي تصبح شركة على المشاع ، وهذه وجهة نظر شبه معتدلة من الجانب الإسرائيلي .

وهكذا كان الدكتور ظاظا يقدم لنا ما تتداوله الصحف العربية والأجنبية وحتى الإسرائيلية حول موضوعات شتى ، حتى ذلك الموضوع الهام خلال مفاوضات السلام ، أو معاملة الأسرى ، أو إعتقال المطران كابوتشي .. ومعظم هذه الأمور كان يستعرضها في برنامجه الإذاعي المشوق ـ من قلب إسرائيل ـ والذي استطاع أن يحشد له جمهوراً جيداً من المستمعين .

هذا ليس البرنامج الوحيد فالمعروف عن الدكتور حسن ظاظا أنه كان يعد برامج عديدة منها برنامجه الشهير ـ أصل الكلام ـ وكان يبث إذاعة إسكندرية المحلية ، ويقوم بتقديمه الأستاذ نبيل عاطف ، وكان الدكتور ظاظا في تسجيله لهذا البرنامج لا يعتمد على نص مكتوب سلفاً وإنما مشافهة ، وهذا كان استثناء صرح به الأستاذ حافظ عبد الوهاب مدير الإذاعة لما يتمتع به د. ظاظا من سمعة وصيت في هذا المجال ، ولكن للأسف الشديد لا توجد تسجيلات لهذا البرنامج الآن ، والذي كان يتميز بمقدمة كتبها ظاظا

زجـلاً يقـول فيهـا :

أصل الكلام فكر ونغم .. على قد بعضيهم تمام

ومعنى في اللفظ انسجم .. على الكلام آخر إنسجام

وياما فيه كنوز حكم .. مفتاحها في أصل الكلام

الغريـب في أمـر البرنامـج وصاحبـه أنـه لم يقبـل مزاحـاً مـن الإذاعـي نبيـل عاطـف رغـم الصداقـة التـي تجمعهـما ، فأحـضر مظروفـاً بداخلـه جملـة المكافـأت التـي حصـل عليهـا مـن البرنامـج والقـى بهـا عـلى طاولـة الإذاعـي الصديـق ، وهنـاك طرفـة في إيطـار البرنامـج في زمـن إذاعتـه فقـد توافـق سـير الدكتـور ظاظـا مـع الصديـق الشـاعر عبـد العليـم القبـاني وكانـت هنـاك بائعـة في سـوق شـيديا المعـروف بالإبراهيميـة مـن أحيـاء الإسـكندرية ، وكانـت السـيدة في مشـادة مـع زوجهـا ، وهـو بائـع أيضـا ويبيعـون الليمـون ولمـا احتـدم الخنـاق قالـت لـه : يـا راجـل يـا جعـر .. فـما كان مـن الرجـل سـوى الضحـك قائـلاً لهـا : يعنـي ايـه جعـر دي ؟ اسـتني بقـى لمـا نبعـت للدكتـور ظاظـا ونطلـب منـه يقـول معناهـا في برنامـج (أصـل الـكلام) .

وكتمها ظاظا في نفسه حتى ابتعد قليلا وأطلقها ضحكة مجلجلة .

وحـول هـذا البرنامـج توجهـت إلى صديـق عزيـز مـن أصدقـاء الدكتـور اوصـاني بزيارتـه ، وهـو الزجـال والكاتـب السـكندري المعـروف الأسـتاذ كامـل حسـني ، وهـو عضـو لجنـة النصـوص في الإذاعـة ، ولـه العديـد مـن الأعـمال الإذاعيـة والكتـب والمشـاركات ، وذو نشـاط أدبي كبـير إلى جانـب ترؤسـه لجمعيـة أدبـاء الشـعب ، واسـتقبلني بمنتهـى الحـب رغـم إنشـغاله بمتابعـة أخبـار صحـة أبنـه الـذي كان مريضـاً في ذلـك الوقـت بالمستشـفى ، وقـد حـاول تقديـم المسـاعدة للحصـول ولـو

على جزء بسيط من البرنامج لكن للأسف لا أمل بعد أن تم مسح الأشرطة .

بطبيعة الحال معروف أن الأستاذ الدكتور حسن ظاظا كان عالما في فقه اللغة واستاذاً للكلمة المقروءة والمسموعة ، ولديه مخزون موسوعي كبير في هذا الشأن وحدثني عن العربية فقال :

« في الجزيرة العربية لم تكن اللغة العربية وحدها التي تجمع الناس ولا حضارة واحدة ، فهناك النبطية والتي تأخذ أبعادها من أقليم النبط على حدود الأردن والسعودية ، والتدمرية ولابد أن تكون قد قرأت عن حضارة تدمر في الشام من الأردن إلى دمشق من عند الزرقا ، وكانت تحكمهم زنوبيا ـ زينب ـ ووزيرها يسمى قصير ، وهناك اللحيانية والثمودية ، والسبئبية ، والمعينية ،والحميرية ، والقطبانية ، والحضرمية والسقرطية ولغة المهرة ، أما القرشية .. لغة قريش كانت مشهورة في ذي المجنة مثل الجاز وعكاظ ، وهي أسواق هامة للعرب .

وهناك الأكادية وهي أقربهم للعربية ، والتي ظهرت في جنوب العراق وجاء ذكر ذلك كثيراً عن د. طه حسين في كتابه ـ الشعر الجاهلي ـ بأن اليمن هم أصحاب العربية ، وأخالفه في ذلك لأن النقوش اليمنية خطها أقرب إلى الجبش ، ولغتها ليست معربة ، والألفاظ فيها ليست شبيهة بالعربية .

# تخصص مسبوق

كنت أتعجب من اختياره للغة العبرية التي حاول تعليمي إياها دون فائدة من عقلي المغلق على العامية المصرية . وكان يقول إن اللغة العبرية قوامها أبعة ملايين نسمة على الأرض المحتلة ، وحوالي ثمانية ملايين حول العالم ، أي مجرد اثنتا عشر مليون لسان يتحدث بتلك اللغة ، معنى ذلك أنها ليست بالقوة التي تسع الناس ويسعى الآخرون لتعلمها والدخول بين مرادفتها ، ولعلي كنت أظن لسبب أو آخر أنه ربما كان من الرواد في هذا المجال مما دعاه لتكريس الجهد لتأصيل معاني وكلمات هذه اللغة كواحدة من اللغات السامية ، والحفاظ عليها من الضياع والبحث فيما ترك القدماء من أفكار وعلوم كتبت بهذه اللغة ، هكذا كنت أظن .. وسألته إن كان هناك من سبقوه في دراسة اللغة العبرية وتحملوا عبء تدريسها لأجيال أخرى فأجاب :

« في البداية كان هناك ـ إسرائيل ولفن سن ـ وكان لقبه أبو ذؤيب ، أهتم بتدريس اللغات السامية ومنها العبرية ، وكذلك ـ بول كراوس ـ الذي درست عليه ، وله كتاب عن تاريخ اللغات السامية بالعربي في دار الترجمة .. وهؤلاء كانوا يقدمون خلاصة اللغة ويحققون رأياً في ذلك ، وهناك مصري اسمه ـ ليون محرز ـ في دار العلوم وزوج بنت الحاخام الأكبر ـ حاييم ناحوم ـ أما المسلمين المصريين من الجيل السابق لي فهناك عطية الأبراشي ومعه في نفس الوقت كل من ـ فؤاد حسنين علي ، ومراد كامل ـ وكانوا يدرسون مباديء اللغة ، ولكني درست هذه اللغة وعشت

بها في الجامعة العبرية في تل أبيب والقدس ، وتعرفت على الكثير من آدابها ونصوصها ، وعلوم الدين أو الفكر الديني اليهودي بها ، ولقد قرأت التلمود في الطبعة الإنجليزي تسعة وثلاثين مجلداً ، وفي الطبعة العربية حوالي ثمانية مجلدات ، وكذلك قرأت التوراة ـ العهد القديم ـ كله بالعبري ثم إنني قرأت التلمود بترجمات أخرى إلى الإيدش والإنجليزي والفرنساوي ، وكذلك درست السرياني أقرأه وأكتبه ، أما الحبشية فأقرأها وأكتبها ولكن دون إتقان ، ويمكن الفارسي أقرب شوية ، وهناك لغة أهلي وعشيرتي الكردية السوراني ، وهي قريبة من الفارسية واللغة الكردية فيها السوراني والكرمنجي والإيراني .

# بول كراوس

يعتبر بول كراوس بالنسبة لظاظا هو مفتاح اللغة وربانها الذي قاده إلى الإمساك بدفتها ، وركوب أمواجها والسباحة في بحرها المتسع المجال ، بل لعله واحد من أهم الأسباب وراء تعلقه باللغة العبرية وتعلمها ، يقول عنه :

إذا كان بول كرواس هو ذلك العالم الذي فتح مجال التعليم بالنسبة لي فإن سقطاته كانت كبيرة جداً ، فعند تعرفه على دورثي قدمت له النصيحة بالإبتعاد عنها ، فهي ليست فقط صهيونية النزعة أو بربرية المنطق ولكنها فوق كل هذا إرهابية الأسلوب ، وكانت ضمن نساء قلائل في هذا العالم ممن يتعاملون بالقنابل والمدافع وتلك الأشياء التي لا تليق بالتعامل الإنساني ، وأنا أرفض هذا مهما كانت الخلافات بين الأشخاص ، ورغم هذا تعلق بها الرجل ، وكان منطقه في ذلك أن النساء ربما كانت لهن نزعات أو ميول ولكنهن يمتثلن للعقل والتعقل مع الخطوة الأولى للزواج .

لكن دورثي التي تعود جذورها إلى لتوانيا حتى بعد الزواج لم تتراجع خطوة واحدة بل زادت في التعنت والغرور يدفعها في ذلك التعلق بالأمل لتنال الحظوة لديهم ، وتصير على الأقل وزيرة للثقافة في دولة الكيان الصهيوني مثل زميلتها جولدا مائير .

الرجل الذي اعتقد بأن زواجه منها قد يوقف ذلك النشاط انتهى به الأمر إلى الإنتحار، وجاءت هي لتحمل كل متعلقاته وما ترك وراءه من أموال وتضعها في يد تاجر العاديات الروسي الذي كان يحصد الملايين من وراء تجارته ، وتزوجته ولكنه لحق هو الآخر

بسابقه ، واجتمعت لها تلك الأموال التي لم تسفيد منها في تحقيق الحلم الذي كانت تسعى إلى تحقيقه وانتهى بها المطاف بالهجرة إلى أمريكا .
وبول كراوس كان تشيكي الأصل ودرسني في جامعة القاهرة ، وأنجب بنتاً واحدة من زوجته الأولى أخذتها أنا ووضعتها مستعمرة ـ مستوطنة ـ معاليه حمشة ـ تل الخمسة ـ وهي على رأس جبل وتحتها قرية أوغوش ، وأظن اسم الجبل ـ سكوباس ـ ، وإن كان السبب الأصلي وراء انتحار كرواس غير واضح إلا أنه طالما غير صهيوني وعرف دورثي فكان لابد أن يموت وليست تلك هي الحادثة الوحيدة التي أشاهدها ، فإن قضية اللورد موين عام ١٩٤٣م هي الأخرى عجيبة ، وكنت أنا شاهد ضمن شهودها.
لكن قبل الحديث عن حادث اللورد موين أريدك أن تعرف بأن بول كراوس عندما توفى كان عمره راحداً وأربعين عاماً ، ويجيد خمسة عشر لغة على الأقل ، بل وله مؤلفات منشورة بعشر لغات ، ومن رسائله المعتبرة جداً رسالة كبيرة تقع في سبعمائة صفحة من القطع الكبير عن جابر بن حيان ومجهوداته في الكيمياء، ونشرته المطبعة الحكومية في فرنسا وتم ترجمته إلى الألمانية ، ونشر أيضا في انجلترا وتم نشر بحث الدكتوراة في برلين بألمانيا ، وقد تعاون مع ـ سليون ـ المستشرق الفرنسي في نشر المؤلفات الخاصة بالحسين بن منصور الحلاج المتصوف .. بالعربية وله العديد من الأبحاث والموضوعات العامة في مجلتي الرسالة والثقافة ، ومن منشوراته العربية أيضاً بعد تعاونه مع الدكتور محمد حميد الله ، وهو ـ هندي ـ ونشر الأثنين معا وثائق سياسية

مـن عهـد النبـوة والخلفـاء الراشـدين ، وتولـت طباعتـه لجنـة التأليـف والترجمـة والنـشر ـ بالقاهـرة .

ـ رجل بهذا الحجم وتلك العبقرية ألم يكتب عنه أحد ؟!

ـ بـلى لقـد كتـب عنـه توفيـق الطويـل بأنـه جاسـوس صهيـوني ، ولقـد تصـدى لـه العديـد مـن النـاس الذيـن دافعـوا عنـه وقالـوا أنـه أبعـد النـاس عـن الصهيونيـة .

ـ ولماذا لم ينصفه أحد ؟

ـ هـذا الرجـل سـقط بـين كرسـيين فـ اليهـود تركـوه لأنـه غـير صهيـوني ، وباقـي النـاس لم يسـألوا عنـه لأنـه يهـودي .

ـ وأين تلك المؤلفات ؟

ـ جميـع أو معظـم مؤلفاتـه كانـت عنـدي حتـى بعـض أوراقـه الخاصـة ولكنهـا فقـدت ، واكتسـبت منهـا خصوصيـة المنهـج والشـجاعة في التنـاول والافـتراض أنـه ليـس هنـاك شيء لا يحتـاج إلى بحـث ، كـما أن تشـككي في أسـلوب التـوراة بعثـه في نفـسي هـذا الرجـل ولكـن باشـارات خفيفـة منـه ، ومـن أراد كتابـة التاريـخ التفصيـلي إمـا أن يكتـب بحريـة وتلـك تعرضـه للقتـل أو الاغتيـال ، أو أن يكتـب عـلى مـزاج الصهيونيـة بمـا يرضيهـم بمزيـد مـن الأكاذيـب .

ـ أعتقد أننا فقدنا أثر الرجل .

ـ لا فجميع مؤلفاته بكل اللغات موجودة في مكتبة الكونجرس .

ـ هـل هنـاك مـن يماثلـه في تلـك العبقريـة مـن الأجانـب المقيمـين في مـصر .

ـ طبعـاً يوسـف شـخت وهـو ألمـاني كل مؤلفاتـه في الفقـه الإسـلامي باللغـة الألمانيـة ، ونـشر كتـب لمخطوطـات حققهـا بنفسـه ، وعمـل

أستاذ في جامعة القاهرة حتى قيام الحرب العالمية الثانية سنة ٣٩ وأكلت الغيرة البعض في قسم التراجم الإنجليزية ، فأوعزت للمخابرات بأن أبن أخيه وهو مدير البنك المركزي الألماني ، وهو جاسوس ، وتم تحويله إلى بريطانيا ليس للمحاكمة وإنما من أجل العمل استاذاً للفقه الإسلامي في جامعة لندن ، وحصل على الجنسية البريطانية ، وقد درست عليه وكان يحاضر باللغة العربية ، وإلى جانب هذا يتقن العبرية والسريانية واللاتينية واليونانية والفرنسية والإنجليزية إلى جانب الألمانية لغته الأم .

## الحاج سيد عاشور

شيخ شيوخ تجار سوق الأقمشة بالحمزاوي بالقاهرة ، أنا لم أمنح الرجل اللقب من عندي ، إنما شعرت بهذا الشعور وأنا أجلس معه بعد توجهت إليه بمصاحبة ابنة الدكتور ظاظا فهي كانت دليلي إليه ، والرجل رغم شيخوخته ذو ذاكرة حاضرة وتفاعل مع الحدث بشكل يدعو للعجب ، وكان منذ أيام في لقاء تلفزيوني حول علاقته باللغة العبرية والدارسين لها ، هكذا كانت بداية الحوار بعد عرف أنني مهتم بالدكتور ظاظا ، وكل ما يحيط حياته ، وعن صديقه المرحوم الدكتور ظاظا في شهادة عنه .. قال : « جميع من أخذوا من علمه لم يفكروا في ارسال خطاب له ، ومن حوالي عام اشاعوا أنه مات ، وكان المتوفي ابن عمه .. وقلت لهم لم يمت وأنا على اتصال به ، والاتصال كان دليل حبي له ، والكارت بخمس قروش ومع ذلك لم يرسلوا له .

لقد تخرجت من كلية التجارة ، وتخصصت في الإقتصاد الإسلامي سنة ١٩٣٧ م ، وسبب معرفتي بالدكتور ظاظا هو حضوري مناقشة رسالة ماجستير لطالب صديقي والدكتور كان مشرف عليه ، وكان تدخلي بالرد قبل الطالب الذي كان في غاية الإضطراب ، والدكتور لم يكن يعجبه تدخلي وتناقشت معه بعد التحكيم ، وشبكنا مع بعض وكأنه هناك مغناطيس ، وفي اليوم التالي وفي الصباح الباكر كان عندي في المحل ، (شوف) أنا اشتريت الدكان ده سنة ١٩٣٩م وكان السوق في يد اليهود وأنا أعرف انجليزي وفرنساوي ، ولكن اليهود كانوا بيتكلموا عبري ، أنا أعرف إنجليزي وفرنساوي ، لكن

اليهـود كانـوا بيتكلمـوا عـبري ، وأنـا لم اتعلـم إلا عـلى يـد هـؤلاء التجار وبـدأت أشـتري الكتـب ، وعرفـت الكثـير مـن الدكتـور ظاظـا العبريـة القديمـة والحديثـة ، كان يكتـب لي توكيـل بـكل شيء وأي مبالـغ معـاه زيـادة كان يعطيهـا لوالدتـه وخالـه عبـد العزيـز ، ويمكـن آخـر الشـهر لا يوجـد معـه شيء ، ولم يأخـذ نقـود مـن أي كتـاب ألفـه .

وفي يـوم كان الدكتـور فـؤاد حسـنين قـد قـرر نتيجـة الطـلاب بنسـبة رسـوب عاليـة جـداً ، والحقيقـة ظاظـا كان زعـلان للحكايـة دي وأخـذ يراجـع أوراق الإجابـة كلهـا مـرة أخـرى وأنـا معـه ، وكان نتيجـة ذلـك نجـاح الجميـع مـا عـدا ثلاثـة ، وفـسر هـذا العمـل بـأن قـال : لم يبـق بـين هـذا الطالـب وبـين أن يكـون رجـل البيـت سـوى خمـس درجـات ، وكان عاطفـي جـداً وهـذه العاطفـة لم أجدهـا في إنسـان غـيره ، ولم أراه يمـشي (أعـوج) ممكـن يمـشي مـع شـاعر ، أو عـازف ربابـة وفي النهايـة هـو المسـتفيد لمـا لديـه مـن شـاعرية ، وعندمـا عرضـت عليـه وظائـف مهمـة رفضهـا وقـال : لـن أوافـق لأني الآن أشـتري فجـل وبرتقـال ، واحمـل الأكيـاس كـما باقـي النـاس ، وبنفـس الأسـعار ، ولكـن عندمـا أصبـح وزيـراً فـإن هـذا سـوف يكلفنـي ـ سـائق ، وخـادم ، واسـعار ـ مختلفـة ومختلقـة والـوزارة لا تـدوم فـإذا عـدت إلى حيـاتي سـوف يكـون هـذا مـن الصعـب جـداً ، وفيـما اعتقـد لـن يوجـد لـه بديـل عـلى مـدى خمسـين سـنة قادمـة ، وكل مـن حصـل عـلى ماجسـتير أو دكتـوراة يقـول أنـا عـالم ، ولكنـي كنـت معـه بصـورة مسـتمرة واسـبوعية ورأيـت قوتـه في علمـه ، وهـو نمـوذج انتهـى ، أنـا عنـدي رسـالة الدكتـوراة التـي تقـدم بهـا للسربـون وهـي بالفرنسـاوي واتمنـى ترجمتهـا ، واتمنـى أيضـاً طباعـة كتـاب الفكـر الدينـي اليهـودي مئـات

الطبعـات وبـكل اللغـات » .
تلــك كانــت شــهادة الأســتاذ ســيد عاشــور عــن صديقــه المرحــوم الدكتــور حســن ظاظــا .
وأعـود لحكايـاتي مـع الدكتـور ظاظـا ، وأنـا أطلـب منـه أن يقـص لي قصـة حـادث اللـورد مويـن .!
ـ دعنا نعود إلى حادث اللورد موين .
لقـد تـم الإعتـداء عـلى اللـورد مويـن مـن قبـل شـابين تسـلقا عامـود الكهربـاء الـذي بـه خـط التليفـون ، وكانـوا يرتـدون ملابـس فنيـين لشركـة التليفونـات وهــما ـ الياهــو حكيــم ، والياهــو توســوري ـ ، وعندمـا تـم القبـض عليهـما كانـوا يتحدثـون العبريـة فطلبـوني للترجمة ، وبعـد أن تـم تسـجيل اقوالهـم ردا عـلى الأسـئلة التـي كانـت توجـه لهـم ، وكذلـك بعـد كتابـة الدباجـة المعروفـة في مثـل هـذه الحـالات ، وجدتهـم يتحدثـون العربيـة وهـم عـلى فهـم ودرايـة بهـا ، ولمـا تعجبـت لذلـك والإرسـال ورائي كي أقـوم بالترجمـة ، فـكان تعليقهـم عـلى ذلـك أنهـم يريـدون أن يتم تسـجيل أقوالهـم في المحاضر الرسـمية أن إسرائيـل دولـة ولهـا لغـة خاصـة بهـا اسـتدعى الأمـر انتـداب مترجم ، وتـم الحكـم عليهـما بالإعـدام شـنقاً ، وقـد حـضرت بنفـسي المحاكمة ، ورأيـت أحـد الحاخامـات يسـأله أن يصـلي لـه فقـال لـه : لا داعـي فأنـا أواجـه المـوت بـروح عاليـة بعـد أن أديـت رسـالتي بقتـل هـذا القاتـل الـذي تسـبب في مقتـل خمسـمائة يهـودي كانـوا عـلى ظهـر الباخـرة ـ أتسـودس ـ وهـو عنـوان ثـاني كتـاب مـن كتـب التـوراة ومعنـاه ـ الخـروج ـ ومناحـم بيجـن في أول زيـارة لـه إلى القاهـرة طلـب مـن أنـور السـادات رفـات كل مـن الياهـو حكيـم والياهـو توسـوري ، وتـم

نقلهما إلى تل أبيب ودفنهما كبطلين قوميين .
وأخذني العجب من هذا الخبث اليهودي والإصرار على تثبيت أنفسهم وأقدامهم فوق الأرض رغم أنف الجميع .
وسألته عن غانية الإسكندرية تاييس ظنا مني أن هذا هو الاسلوب الأجدى للهروب الجميل من تلك القصص ، حول البطولات اليهودية الوهمية ، ولكنني وقعت مرة أخرى أمام حادثة من الحوادث بطلها أيضا يهودي ، لأنني عندما سألت عن تاييس انتقل بالحديث عند مؤلف الرواية ـ أناتوال فرانس ـ صاحب مملكة الأطلنتيد كذلك ، ولما كنت واحداً من المعجبين بهذا المؤلف اتضح لي أن الشباب قد زهدوا في قراءة مؤلفاته في فرنسا لما ظهر لهم انتهازيته التي وضحت من خلال العديد من القضايا التي عهد إليه للترافع فيها ، وكما أن المعروف عنه أنه كان مداهنا ومواليا لطبقة النبلاء والضباط ، وكان ذلك من اسباب رفض التعاطي مع قضية ـ ديريفوس ـ الذي قد صدر ضده الحكم بالسجن مدى الحياة في أحد سجون فرنسا ، وكانت أخته قد اعتادت زيارته بين فترة واخرى لأن هذا الحكم معناه أنه لن يخرج من السجن إلا إلى القبر ، وفي يوم من أيام الزيارة كانت تحمل له أخته بعض السجائر والجرائد ويتخلل الصحف خبر عن ترقية بعض زملاؤه الضباط ، فأخذت أخته في معاتبته لأنه لولا تلك القضية لكان الآن ضابطاً برتبة رفيعة المستوى فأطرق برأسه قائلاً لها .. أقسم بالله العظيم أنني بريء .
لم تهتم الأخت كثيراً لهذا الأمر الذي اعتادت عليه منذ سنوات وذهبت إلى منزلها بعد انتهاء الزيارة ولكنها لم تكن بنفس الروح

التـي سـبقت زيارتهـا لأخيهـا ، فقـد تـردد قسـمه أمامهـا كثـيراً وقالـت مـا الـذي يدعـوه أن يقسـم عـلى هـذا الأمـر وقـد تـم الحكـم فيـه وهـو حكـم نهـائي ؟! واحسـت بالصـدق في صوتـه ، وراحـت تتبـع مـا نـشر حـول القضيـة وتجمـع لديهـا بعـض القصاصـات مـن هنـا وهنـاك ، ووضعـت كل ذلـك في ملـف كبـير وتوجهـت إلى ـ أناتـوال فرانـس ـ كي يقـوم بدراسـة قضيـة أخيهـا ـ ديريفـوس ـ والترافـع عنـه أمـام المحكمـة أو إعـادة محاكمتـه مـن جديـد ، ولمـا كان ـ اناتـوال ـــ انتهازيـاً ومواليـاً لنفـس مجموعـة الضبـاط والنبـلاء الذيـن كانـوا وراء الحكـم بسـجن الرجـل لهـذا رفـض حتـى مجـرد النظـر في أوراق تلـك القضيـة التـي قـرر أنـه لا يمكـن فتـح ملفاتهـا مـن جديـد ، ولكـن الأخـت تحمسـت بالحـرص عـلى السـير في كل الـدروب ، وطـرق كل الأبـواب التـي مـن خلالهـا تتـم بـراءة أخيهـا وخلـو سـاحته مـن كل مـا نسـب إليـه ، وكاد أن يتـسرب إليهـا اليـأس ، ودعاهـا كل ذلـك للذهـاب إلى ـ إميـل زولا ـ والمعـروف عنـه أنـه مـن أقـوى المختصـين بمهمـة الدفاعـات بالإضافـة إلى كتاباتـه الدوريـة واليوميـة في الكثـير مـن الصحـف الفرنسـية ، ورغـم إسـتقباله الجيـد لتلـك الأخـت الشـكلى إلا أنـه رفـض التعامـل مـع تلـك الفضيـة رفضـاً قاطعـاً متعلـلا بأنـه ليـس لديـه مـن الوقـت لهـذا الأمـر الـذي لا فائـدة مـن الخـوض فيـه ، وكل مـا كانـت ترجـوه أن يـدرس الأمـر فقـط .. لكنـه رفـض ، فلمـا غـادرت المكتـب كانـت قـد قـررت في لحظـة يـأس أن تـترك الأمـر برمتـه وتنسـاه ، وبعـد مغادرتهـا وجـد ـ زولا ـ الملـف فـوق مكتبـه ، وعندهـا نـادى مديـر مكتبـه أن يحتفـظ بهـذا الملـف لديـه حتـى تـأتي صاحبنـه للسـؤال عنـه .

فامتنـع مديـر المكتـب عـلى إعتبـار أن مكتبـه لا أمـان لـه حيـث

يقتحمه كل من هب ودب ، أما مكتب سيده فإن كل من يدخل إليه يكون تحت سمعه وبصره ، فاقتنع زولا بذلك ، ولما كان بصدد كتابة مقاله اليومي ولم يجد موضوعاً يطرقه امتدت يده للملف وراح يتصفح فيه ، فأستولى الموضوع على جل اهتمامه فأمسك بالقلم ، وكتب مقالته المعتادة في الجريدة تحت عنوان ـ إني أتهم ـ ثم راح ثم راح يعرض لقضية ديريفوس ، مع توضيح كيفية تلفيق أداة الاتهام لهذا الرجل مما أثار الرأي العام ، وتمت إعادة التحقيق وعرض القضية من جديد ، وتم إطلاق سراح السجين بعد ذلك ، وأصبح زولا نجماً قومياً لحقوق الإنسان .

## أهمية الكتاب

وللكتاب دور مهم في حياة هذا الاستاذ العالم المفكر الفنان ، ولما سألته عن هذا الدور للكتاب في حياته قال :

« الكتاب هو كل حياتي .. ويوجد نوع من الحب لا يأتي من خط الكتاب ولا لأنه مخطوط أثري ، ولكن لأهمية موضوع الكتاب لدرجة اتصالي بالكتب العبرية والتي لم يكن يستطيع التواصل لها إلا المتخصصين من اليهود ، وذلك مما جعل استاذي يقترح وجودي في لجنة حصر الكتب اليهودية التي نهبها النازي الألمان من المكتبات العامة والخاصة في اوروبا ، وبقيت شهور طويلة في ميونخ والتي كان فيها نخبة مما جمع النازي من الكتب لأفهرس ما يوجد هناك من مخطوطات وأشير إلى موضوعه ، وقد كان عمل مذهل رأيت في بضعة أشهر أكثر من ١٠٠ ألف كتاب ومخطوط باليد ، وكان هذا في عام ١٩٤٦ م على أثر أنتهاء الحرب العالمية الثانية ، وفي أوائل وصولي إلى فرنسا .

وأما الكتاب الذي مازال عالقاً في الذهن بألفاظه أحياناً هو كتاب العهد القديم اليهودي ، وأما عن عدد ما أملك في مكتبتي التي سرقت حوالي أربعة آلاف كتاب وهنا لو حصرناهم سوف نصل بسهولة إلى الف .

ومؤلفاتي كثيرة وبلغات متعددة منها عشرة بالعربي والباقي موزع بين العبري والإنجليزي والفرنسي ، وبالنسبة للعبري لي كتاب بالأشتراك في التأليف مع د. الياهو أشتراوس أستاذ التاريخ الشرقي في الجامعة العبرية ، وكتبت فيه القسم الخاص بالجالية

اليهوديـة في مـصر والشـام في حكـم المماليـك ، وهـذا الدكتـور أرشـدني إلى مرجـع مصـور عـن مخطـوط وموجـود في مكتبـة جامعـة القاهـرة ، وكان يعرفـه وأنـا لا أعرفـه ، وعنـوان هـذا الكتـاب ـ زبـدة الفكـرة في تاريـخ الهجـرة ـ ، ويقـع في ١٤ مجلـد سـميك للمؤلـف الأمـير بيـبرس البندقـداري ، واعتقـد أنـه قريـب للسـلطان البطـل الظاهـر بيـبرس .
وأمـا عـن الكتـاب الـذي أتمنـى أن أجـده في مكتبتـي ولا أملكـه هـو كتـاب ـ التلمـود ـ لأن قراءتـه مسـلية ، ولأنـه دائـرة معـارف لـكل خرافـات العـالم وليـس لليهـود فقـط ، وفي الطبعـة الدقيقـة المصغـرة يقـع في ١٢ مجلـد ضخـم .
ثمانيـة منهـم تحتـوي عـلى نـص التلمـود الشرقـي ، والـذي نسـميه التلمـود البابـلي » .
وهنـا لا يمكننـي أن أغفـل أهميـة وجـود الكتـاب بـين يديـه عـلى وجـه الخصـوص في الفـترة الأخـيرة مـن حياتـه لـدور الكتـاب في التواصـل بـين خيـوط الحيـاة نفسـها وبـين الـروح المتأججـة التـي تسـكن نفسـه وربما يعيـد قـراءة نفـس الكتـاب لعـشرات المـرات ويـدون بعـض الهوامـش ، هكـذا كان يتنفـس الأحـرف والسـطور في الكتـاب نحـواً وصرفاً واسـلوباً وفكـرة ، بعـض الكتـب كانـت تقـدم لـه كأجمـل هديـة ، منهـا الكتـب التـي كان يسـتدل عـلى الجيـد منهـا فـلا يدعـة إلا وقـد قتلـه قـراءة وتمحيـص ، وكان آخـر كتـاب أهـدى إليـه مـن صديقـه الأسـتاذ الدكتـور عبـد اللـه العثيمـين أمـين عـام جائـزة الملـك فيصـل العالميـة ، وبمناسـبة الحديـث عـن الجوائـز ، فـإن الدكتـور ظاظـا لم يتـم ترشـيحه لأي جائـزة في الوقـت الـذي لم يتوقـف عـن العطـاء العلمـي والفكـري أو الأكاديمـي

، ولـن اتحـدث عـن السـنوات الأخـيرة ، ولا عـن الأشـهر الأخـيرة لا وإنما الأسـابيع الأخـيرة مـن حياتـه فبعـد حضـور نـدوة في نـادي القصيـم الأدبي ورغـم شـدة الآم المـرض ، قـرأ ثـلاث أبحـاث مـن الفطـع الكبـير ، ثـم البحـث الكبـير حـول الشـعر اليهـودي ، أنطلـق بعدهـا وراء فكـرة كشـف أنبيـاء الكـذب في اليهوديـة ولم يتمكـن مـن اتمام العمـل بعـد كتابـة صفحتـين فقـط والسـبب وراء ذلـك الضعـف الشـديد في الرؤيـة ، ولم يتمكـن مـن نقـل الفكـرة عـن طريـق الإمـلاء .

وتوقـف البحـث ومـع ذلـك وللغرابـة الشـديدة ، اعلنـت الدكتـورة هـدى جانوفيتـش التـي تـرأس القسـم العـربي بجامعـة تاييبـه عـن رغبـة الجامعـة في التعاقـد مـع الأسـتاذ الدكتـور حسـن ظاظـا الـذي أقـترب مـن سـن الثمانـين ولديـه إعاقـة جسـدية تبلـغ السـبعين بالمئـة ، وهـي تعـرض عليـه التعاقـد نظـير راتـب خمسـة عـشر ألـف دولار شـهرياً ، وقـد وضـع شروط ، ومنهـا اصطحـاب مسـاعد لـه لتدبـير شـؤونه عـلى أن يدفـع راتبـه مـن مالـه الخـاص ، ووافقـت رئيسـة القسـم عـلى أي شرط ولكـن بعـد تـداول الأمـر مـع المسـؤولين ، وتـم أرسـال السـيرة الذاتيـة وبعـض الأوراق عـبر الفاكـس ، في الوقـت الـذي يسـتعد فيـه للدخـول إلى المستشـفى ، وبنفـس الحـماس كان ينتظـر دعـوة مـن ملـك المغـرب لحضـور مؤتمـر القدس ، فهـو الأقـدر للحديث عـن المدينـة التـي سـكنت ضمـيره وعقلـه عـلى مـدى سـنوات عمـره .

مؤلفات الدكتور حسن ظاظا دون احصاء تأتي على النحو التالي :

كتـب اللغـة ، ومنهـا ـ اللسـان والإنسـان ـ مدخـل إلى معرفـة اللغـة ، ـ كلام العـرب ـ مـن قضايـا اللغـة العربيـة ، ـ السـاميون ولغاتهـم ـ تعريـف بالقرابـات اللغويـة والحضاريـة عنـد العـرب ، ومـن كتـب

الدراسـات اليهوديـة ـ ابحـاث في الفكـر الدينـي اليهـودي ـ أطـواره ومذاهبـه ، ـ الشـخصية الإسرائيليـة ـ ، ـ إسرائيـل ـ ركيـزة الإسـتعمار والعـدوان بـين المسـلمين ، ـ القـدس مدينـة اللـه أم مدينـة داوود ـ ، ومـن الأعـمال الأدبيـة كتـاب الكشـكول ـ الجـزء الأول عـام ١٩٩٤ م والجـزء الثـاني ١٩٩٨ م.

## عداوة مع البرتقال !!!

التفاح هو فاكهته المفضلة ، وبعدها أي فاكهة ذات الحجم الصغير المستدير ، منها العنب والمشمش والبرقوق ، لم يكن يميل لتناول البرتقال إلا عند الضرورة أو عندما تقدم له من يد إنسان عزيز عنده وصعب أن يرد يده ، وعن السبب في هذا يقول : أنه لم يأكل ثمرة البرتقال منذ أن كان بالقدس عام ١٩٤٤م، وحتى عام ١٩٧٧م عندما حضر إلى الرياض بسبب كثرة ما تناوله من عصير البرتقال سواء في القدس لبرودة الجو أو حتى في فرنسا عام ١٩٤٦م ، وكأنه قد استكمل نصابه من تلك الثمرة واصيب بحالة تشبع منها ، واما الموز قد تكفيه واحدة يومية عن طعام يوم كامل .

## الشيخ فريد السنديوني

في بداية الكتاب جاء على لسان الدكتور ظاظا أنني على علم بقصة الشيخ فريد السنديوني ، فعلا ، لكن ما هي القصة التي قصها الدكتور ظاظا ؟

ـ في الإذاعة المشهورة في ذلك الوقت ، أقصد إذاعة الشرق الأدنى كان يجتمع لفيف من المصريين ممن جاءوا لإحياء شهر رمضان المبارك ، من خلال أعمال فنية دينية ودرامية ، ومن بينهم الشيخ فريد والذي كان يتميز إلى جانب حلاوة الصوت في تجويد القرآن الكريم طول أيام الشهر الفضيل ، كان فريد في طريقته ، وملابسه وأناقته ، ومن ثم قفشاته وتهتكه ، ومن مداعباته المعروفه عنه

أثناء تواجده مجلس يضم من الفنانين ليلى مراد وفاخر فاخر وآخرين ، وعلى عادته كان (يتبحبح) قليلاً في الحديث مما دفع ليلى مراد من توجيه اللوم إليه قائلة :

ـ مش عيب عليك وأنت حاطط عمة وتقول كلام زي ده ؟

ـ يعني يا ست ليلى مشفتيش مني إلا العمة ؟ والله يا شيخة أدوبها على دماغك .

وتلك الطرفةيطرب لها الدكتور ظاظا وتضحكه كثيراً لما فيها من سرعة بديهة .

وضمن تلبرامج الإذاعية المميزة في إذاعة الرياض كان ـ د. ظاظا ـ ضيف الأسبوع لبرنامج من إعداد وتقديم الدكتور محمد العوين ، وتم التسجيل باستوديو ٤ ، وجاء مكان جلوسي في غرفة التحكم بالتسجيل الملحقة بالاستوديو ، وكنت اتابع الحديث الذي جاء غاية في البساطة والهدوء ، من هذا الإنسان الذي كان كل عضو في جسده يتمزق ألماً .

وكنا قبل الدخول لمبنى الإذاعة والتلفزيون نقف بالخارج لأكثر من نصف ساعة حتى يتم الاتصال بالدكتور العوين ، ومن ثم تم استخراج تصاريح الدخول لنا ، ومشينا عدة أمتار كانت بالنسبة له كالدهر لعدم القدرة على التحرك .

وبعد تقديم الضيف للمستمعين ، كانت الأسئلة المطروحة غاية في الدقة والوعي ومعظمها يدور حول ما هو معروف عن الدكتور ظاظا من حيث أهتمامه بدراسة الآخر ، ومن تلك التي أذكرها ، أو أهمها ، هل أنت تُقرأ في إسرائيل .

قال :

ـ كل مـا اكتبـه يصـل اليهـم ويحاولـون رفـض مـا أدعيـه ، ولي كتـاب مطبـوع بالعبريـة كان رسـالة الماجسـتير وقالـوا : ان ظاظـا محـق في كل مـا جـاء في الكتـاب إلا أنـه يصفنـا بالعـدو المحتـل ، ثـم ينتقـل بعـد ذلـك إلى التلاقـح والتلاقـي مـع الثقافـة الإسـلامية حتـى أن بعـض مفكريهـم وعلمائهـم مثـل يهـوذا بـن قريـش ، وأبـو الوليـد مـروان بـن جنـاح القرطبـي وأبـو زكريـا يحيـى بـن داود الطـبري وهـو عـالم تلمـودي كبـير ، لـو تسـمع اسـمائهم لأول مـرة تظـن أنهـم مـن عـرب الجزيـرة العربيـة أو علـماء المسـلمين القدمـاء.. واسترسـل حـول العقبـات التـي كانـت تقـف أمـام اتمـام دراسـته العليـا بالسربـون ، ثـم شرح قصـة علـماء باريـس ومنهـم ـ ليـبر ـ وكان الحاخـام الأكـبر لفرنسـا ، و ـ جوجنهايـم ـ ، وـ الحاخـام فيـدا ـ الـذي كان متخصـص في الفكـر المقـارن الإسـلامي واليهـودي .

إلى جانـب لقـاء في أحـد القنـوات التلفزيونيـة بتقديـم الاسـتاذ محمـد رضـا نـصر اللـه ، وإلى جانـب العديـد مـن اللقـاءات الصحفيـة والتحقيقـات والنـدوات ، كان هنـاك منتـدى الفيصـل وكان الضيـف الأول فيـه حيـث اتسـع المجـال لتسـجيل العديـد مـن الأسـئلة والإجابـة عليهـا أمـام القـراء والباحثـين بشـكل يدعـو إلى الفخـر والاعتـزاز لهـذا الكـم الهائـل مـن المعلومـات وقـوة البراهـين التـي كان يسـوقها بـين فقـرات حديثـة ، إلى جانـب الاسـماء والمواقـع والتوقيـت بشـكل مذهـل ، وتـم تسـجيل اللقـاء عـلى مـدى يومـين مـع فريـق منهـم الإذاعـي المعـروف الاسـتاذ سـليمان العيـدي ، والصحفـي حسـين حسـن حسـين ، ومعهـم مهنـدس ومصـور والحـوار كان مـن القـوة بحيـث أنـه لم يـترك

شيء إلا وتطـرق إليـه ، ويمكـن للقـارىء الكريـم أن يعـود إلى مجلـة الفيصـل للإطـلاع عـلى هـذا المنتـدى الشـيق .

## عبدة الشيطان

في هـذه الليلـة كان يـسرد لي قصـة ماركـو بولـو ورحلتـه مـن البندقيـة إلى بيزنطـة إلى شرق آسـيا مـروراً بالشـام وبغـداد ، ثـم كيـف كانـت بغـداد مدينـة أعجوبـة كـما رآهـا ابـن مـن أبنـاء أوروبـا ، ولم يـر مثيـلاً لتلـك المدينـة التـي يتحـدث ظاظـا حـول ذكرياتـه عنهـا فيقـول :

« أنـا شـفت بغـداد مرتـين أو ثلاثـة ، وكنـت ـ اسـتاذ زائـر لجامعـة البـصرة والموصـل وحتـى جامعـة بغـداد ، وبقيـت فيهـا ثلاثـة أشـهر .. ناسـها مـن أطيـب النـاس وهـي مـن أجمـل البـلاد ، ويمكـن الموصـل فيهـا نسـبة كبـيرة مـن المسـحيين ، وهـم كـرام جـداً ومنهـم واحـد أسـمه الأب حبـي ، وكان مندهـش لمعرفتـي باللغـة السريانيـة ، وكذلـك صداقـة بيننـا واصطحبنـي معـه في عيـد الكريسـماس إلى واحـد عراقـي ممـن يحبـون مـصر ، وجميـع السـائقين لديـه مـن المصريـين ، وعملـه هـو تجهيـز وتصنيـع واسـتيراد ـ الموبيليـات ـ ثـم تحـدث عـن مهـارة السـائق المـصري وتفانيـه في العمـل ، وبالـغ طبعـا في مدحهـم أمامـي ، وهنـاك فـوج سـياحي كان يـزور كنيسـة القيامـة ، وحـضروا كي يقيمـوا الصـلاة في ديـر الأبـاء الفرنسيسـكان في الموصـل ، وكانـت الفنـادق في هـذا الوقـت كاملـة العـدد ، ولا يوجـد مـكان لفـرد واحـد ورغـم أن الفـوج يتكـون مـن أربعـين فـرد ويحتاجـون إلى طلبـات وعشـاء ونـوم ، ولم يتأخـر عنهـم هـذا التاجـر وطلـب اسـتضافتهم جميعـا وطلـب مـن الخـادم أن يعـد المائـدة والحلويـات لأكـثر مـن خمسـين فـرد ، وكانـت الصـلاة في منتصـف الليـل ، وكانـت المائـدة مـن أروع مـا يكـون .

الرجـل كان كريـم فعـلا ولكـن تلـك الزيـارة دفعتنـي للبحـث عـن

عبدة الشيطان والقيام بزيارة لهم في مكان وجودهم ، وبما أننا في محافظة الموصل فأنه من السهولة الوصول إليهم بقرية عشيقة أو نجزاني ، وهناك تجد القريتين وكأنهما محصنتين بجبل سنجار ، ووجدت نساء من أجمل ما رأيت في حياتي ومن الواضح من شكل الملابس والحديث أنهم في الأصل اكراد ، ويعتنقون اليزيدية وسألت عن منزل الشيخ ، وأنا أشاهد طفلين يتصارعان وكل منهما يقسم بالطاووس أنه لابد أن يفعل كذا كذا .

وعندما طرقت باب الشيخ خرجت فتاة لا تتعدى الثامنة عشر ذات جمال أخاذ ظننتها أبنته حتى عرفت بعد ذلك أنها زوجته ثم حضر الشيخ ، ولم يكن يميزه سوى عمره الذي أقترب من الكهولة ، ورحب بي وسألني عن الغرض من وراء الزيارة وتحدثت معه بصراحة حول كل ما يشاع عنهم من أفكار وأنهم يعبدون الشيطان ، فقال الشيخ كلام كثير منه :

« الشيطان كان من الملائكة المقربين ، ولم ينسى الميثاق الذي أتخذه المولى عز وجل من الملائكة الا يسجدوا لغير الله فلما أمرهم الله بالسجود لآدم سجدوا طائعين لله وناسيين لميثاقهم أما الطاووس ـ وهو اسم الشيطان بين الملائكة ـ فلم ينس ، ولذلك لم يسجد ولم تكن الحالة خروج عن أمر الله بل طاعة وتمسكا بما اقسم بع من قبل ـ ومازال الحديث لشيخ اليزيدية ـ ويتم لنا معرفة الأصل في هذا من غضب الله على الشيطان ، ونحن نعلم أن الله كريم ورحيم ورؤوف إنما الشيطان لا نعرف ماذا يفعل بنا إذا ناصبناه العداء ، ولذلك نداهنه ونقيم له الاحتفال الذي يحج إليه أهل عقيدتنا عند قمة من قمم جبل سنجار ، والطاووس

موجـود في غرفـة ونخرجـه فقـط عنـد ممارسـة طقوسـنا » .
وهنـا يقـول الدكتـور ظاظـا : أنني طلبـت رؤيـة الطـاووس ولم تكـن صناعتـه خارقـة إنمـا مصنـوع مـن الذهـب بطريقـة لا بـأس بهـا ، ومطعـم ببعـض الأحجـار والخـرز ، وهـم في عقيدتهـم لديهـم مصحـف ـ مصحـف رش ـ مشـطوب فيـه أي كلمـة تحمـل اسـم ابليـس أو الشـيطان ـ لعنـه اللـه عليـه ـ وشـيخهم ووكيلـه فقـط المسـموح لهـم بالتعليـم لتسيير الأمـور ، لأن التعليـم في عقيدتهـم مـن أعـمال الكفـر ، كـما أنهـم لا يأكلـون البصـل والكرنـب والقرنبيـط والخرشـوف والخـس أو أي نبـات ورقـه ملفـوف ، فقـد يكـون الشـيطان (خائـف) مـن الـرب (ومتخفـي) في هــذا النبـات ، ولـت حـول ولا قـوة إلا باللـه العـلي العظيـم والحمـد للـه عـلى نعمـة الإسـلام .

## تناتيف

التنتوفـة كلمـة شـعبية في اللهجـة المصريـة وهـي ترمـز إلى الصغـير مـن الأشـياء مـن بـاب التواضـع ، فعندمـا تقـول إحداهـن : إننـي لم أسـاعد إلا في التناتيـف ، فإنمـا ترمـز بذلـك أن مسـاعدتها بسـيطة لا تسـتحق الذكـر في الوقـت الـذي تكـون قدمـت أعظـم الأعـمال وأجلهـا ، والمعنـى يـدل عـلى عـدم إنتظـار الثنـاء رغـم أهميـة دور هـذا العمل وقـد جذبنـي المعنـى في تلـك العبـارة وأنـا أحـاول نقـل بعـض الفقـرات أو التناتيـف مـما جـاء في كتـاب الكشـكول ، ولأني عـلى عكـس مـا يظـن البعـض أعتقـد أن الدكتـور ظاظـا ، كان بـين الفينـة والأخـرى ، يضـع صفحـة أو أكـثر مـن صفحـات حياتـه في الكشـكول ولـن أبالـغ إذا قلـت إن الكشـكول لـه مـن الخصوصيـة والعشـق في قلـب ظاظـا مـا جعلـه يبـوح فيـه بالكثـير مـن أدق أسرار حياتـه ، حتـى العاطفـة منهـا .. وليسـمح لي القـارىء الكريـم أن أنقـل هـذه الكلـمات التـي وردت في الصفحـة ١٠٦ :

« أذكـر وأنـا طالـب في الثانويـة استاذاً للغـة العربيـة كان مختلفـاً تمـام الاختـلاف عـن بقيـة اقرانـه ، كان يفهـم الشـباب ، ويفهـم الـتراث ، ويعـرف كيـف ينسـق الحـاضر بالمـاضي ، دخـل علينـا لأول مـرة فسـألنا عـن الكتـاب الـذي قررتـه الـوزارة للمطالعـة ، فاخبرنـاه انـه ـ أدب الدنيـا والديـن للمـواردي ـ .

وإذا بـه يمـط شـفتيه ، ويلـوح بكفيـه ، صائحـاً : أعـوذ باللـه ! إذا قرأتـم هـذا في سـن الخامسـة عـشرة ، فـماذا تقـرأون في سـن السـبعين ؟ اسـمع يـا ولـد ، احـضروا جميعـا كتـاب اخبـار الإذكيـاء لأبي الفـرج

بـن الجـوزي وسـتجدون انـه أطـرف وأكـثر حيويـة وألمعيـة ، خصوصاً في سـنكم هـذه .. وغمرتنـا منـه نشـوة البطولـة ، فقـد الغـى الكتـاب المقـرر بـدون الرجـوع إلى الرؤسـاء ،أنـه ـ عـلى الرغـم طـول قامتـه ـ ، وشـيب هامتـه ، متمـرد مثلنـا! أنـه أخونـا وصديقنـا وحليفنـا ! أنـه رجـل عظيـم وعجيـب ! ورحنـا نـشرب كلماتـه كلهـا كالرحيـق ، ونكتـب الأشـعار والقصـص والأزجـال ، ونعرضهـا عليـه ، فينقـد كلامنـا بتقريـر يكتبـه في ذيـل العمـل الفنـي الـذي قدمـه لـه التلميـذ ، ويـكافئ المجيـد منـا بـين الفينـة والفينـة بهديـة مـن الكتـب الأدبيـة يشـتريها مـن مالـه الخـاص ، وسرعـان مـا تفجـرت قرائحنـا وتنافسـنا في نيـل رضـاه.. وذات يـوم فاجأنـا المفتـش الأول للغـة العربيـة ، المرحـوم الشـاعر عـلي الجـارم في ذلـك الوقـت ، فنظـر في دفاترنـا ، ثـم اسـتمع إلى قراءتنـا وشـورحنا وإعرابنـا وناقشـنا بمـا يتجـاوز المسـتوى الرسـمي لدراسـتنا ، ونحـن في ذلـك كلـه نتسـابق بالإجوبـة كالشـياطين ، حتـى أغلـن الاسـتاذ المفتـش عـن اعجابـه العميـق بنـا ويأسـتاذ فرقتنـا ....» .
وتسـتمر ذكرياتـه أو مذكراتـه مـن خـلال العديـد مـن الموضوعـات التـي يتنـاول بهـا الأحـداث اليوميـة المحليـة والعالميـة داخـل نسـيج المقـال بشـكل تحسـبه عفـوي وغـير متعمـد ، ويمكنـك الرجـوع للصفحـات الــ ١٣٠ مـن كتـاب الريـاض ـ الكشـكول ـ ، ولم يغفـل بـين كتاباتـه مـن شرح أمـور سـواء كانـت في اللغـة أو الرمـوز ، ويكفـي أنـه في مسـاحة صفحتـين كاملتـين تطـرق إلى شرح كلمـة كشـكول في يـسر وسـهولة مضيفـاً للـشرح النصـوص والاسـانيد وكل مـا يؤيـد المعنـى .
وأنقـل للقـارئ الكريـم رسـالة مـن ابـن عمـه الاسـتاذ محمـد حسـن يقـول فيهـا :

أخي الكريم النبيل د. حسن

الـف قبلـة اعجـاب وتهنئـة عـلى مـا جـاء في خطابـك الأخـير ومقالـك القيـم مـن عظمـة وجـمال في الشـكل والمضمـون ، أمـا الشـكل فيذكرني بأسـاليب المنفلوطـي وطـه حسـين والزيـات وسـلامة مـوسى بـكل مـا يـسري فيـه مـن موسـيقى عذبـة وتركيـز بديـع ، وأمـا المضمـون فينطق بعلـم واسـع وثقافـة عظيمـة وفهـم دقيـق وطمـوح رفيـع يصـدر مـن نفـس نظيفـة وشـجاعة وتـأبى إلا ان تكيـل للباطـل الضربـات في غـير ما خـوف ولا وجـل ، ألا ليـت كل كتابنـا يكتبـون بهـذه الـروح ويثيرونهـا إعصـارا عاتيـا في وجـه الظلـم والاسـتبداد ، ولسـت أدري مـا عـسى أن يكـون مصـير الاسـتاذ الفرنـسي الـذي شـكك في صحـة مزاعـم النمـرة المفترسـة التـي تحلـم بحكـم العـالم وتزيـح مـن طريقهـا كل ثائـر عـلى اساليبها الدنيئـة القـذرة ، وقلبـي يتمـزق عـلى مالهـا مـن نفوذ يسـخر لهـا الغولـة الكريهـة التـي تحـارب العدالـة في كل الأنحـاء وتحمـي الطغـاة الذيـن يسـلبون حريـة الشـعوب ويجثمـون عـلى صدرهـا كي يخمـدوا فيهـا الأنفـاس ، تـرى هـل سـيأتي يـوم يتحقـق فيـه حلـم افلاطـون في سـيادة السـلام وخضـوع السياسـة لمبـاديء الأخـلاق ؟ يلـوح لي أن ذلـك اليـوم لـن يـأتي إلا بعـد حـرب ذريـة طاحنـة لا تبقـي إلا جماعـات متناثـرة واعيـة للـدرس القاتـل فتنبـذ الحـرب وتوقـف عجلـة السـلاح ، وتتعامـل وفـق مبـادىء الحريـة والحـب والإخـاء ، قـد اعجبتنـي مقالـة توفيـق الحكيـم الأخـيرة التـي يدعـو فيهـا مختلـف الفلاسـفة والأدبـاء والفنانـين إلى الـضرب بشـتى الاسـاليب عـلى أوتـار السـلام ، في مقابـل الإنتصـارات العلميـة المدمـرة .

إن الإنسـان القـوي يعيـش هـذه الأيـام بعضـل مـن غـير قلـب ، وتلـك

هـي مأسـاة البشريـة عـبر القـرون ، لقـد أصبحـت كارهـا للحيـاة حـولي بمـا فيهـا مـن تحلـل وسفسـطة وتزييـف ، لقـد أصبحـت الديمقراطيـة في الأفـواه الحاكمـة أكذوبـة كـبرى ، وكا أنـت تدخـل في رسـالتك ألفاظـاً غـير معتـادة ، ولكنهـا تـصرخ بالحـق صرخـة داويـة ، فرعـاك اللـه يـا أخـي وحفظـك في زمـرة المناضلـين عـن الحـق بطهـارة وشرف ونظافـة وإيمـان .

اننـي اقـرأ صحـف المعارضـة ، وأجـد فيهـا احيانـا صرخـات شـجاعة مشرقـة ، ولكنـي أخـشى أن أمـوت قبـل ان اسـمع لهـا صـدى ، ورحـم اللـه شـقيقتنا العظيمـة بقـدر مـا اعطـت وقاسـت ، ولقـد كتبـت للأسـتاذ احمـد بهـاء الديـن اخـبره بـرد البريـد القائـل بـأن الكتـاب سـلم بتاريـخ ٢٦ يونيـو وأظـن أنـه أفضـل مـن غـيره بكثـير ، وإلى لقـاء آخـر يـا اعـز حبيـب ،،، أخـوك محمـد حسـن

(وفي قصاصة مصاحبة للخطاب كتب ما يلي :)

ألا تعلـم أن المرحـوم والـدك كان فنانـا عظيـما وشـاعرا مجيـدا ؟ مـن الطرائـف التـي كان يقصهـا علينـا أنـه ذهـب مـرة كعضـو في فريـق الشـيخ سـلامة حجـازي إلى بعـض البـلاد ، وكان يرتـدي المعطـف الفخـم الأسـود ذي الياقـة (الفوريـر) فلـما فلـما وصلـوا وجـدوا أهـل البلـدة في انتظارهـم (بالركايـب) وكان منظـره ينـم عـن عظمـة في السـمت والـرداء ، ـ كان رحمـه اللـه يشـبه الملـك فـؤاد ـ ، فظنـه النـاس الشـيخ رئيـس الفريـق وأركبـوه حصانـا مطهـما وأركبـوا الشـيخ حـماراً هزيـلاً ومـضى الفريـق إلى داخـل البلـد واعضـاؤه يكتمـون ضحكهـم ، وكانـت مفاجـأة جميلـة لأهـل البلـد، واحتفـظ عنـدي بأشـهر اغنيتـين للشـيخ سـلامة الـذي لا يذكـره الآن أحـد مـن المذيعـين والمتكلمـين عـن تاريـخ

الموسيقى ، انتهت كلمات الرسالة .

ولقد شغلتني تلك الرسالة حتى وقعت في يدي مقالة قيمة للدكتور محمد يوسف نجم بعنوان ـ وثيقة هامة في تاريخ المسرح العربي ـ والتي نشرت في مجلة الدوحة عام ١٩٨١م بالعدد ٦٥ وفي الصفحات ـ ١٣٢ ـ ١٣٤ ـ فوجدت في تلك المقالة ضالتي وعرفت من خلالها الفرق المسرحية التي تعاون معها توفيق ظاظا ومنها فرقة سلامة حجازي وجورج أبيض ، ولعل أهمها فرقة أولاد عكاشة ، ولقد استطاع بفضل الإعلانات معرفة اسماء الممثلين ، وكذلك الأدوار التي قاموا بها ، ففي مسرحية ـ الاتجار بالأزواج ـ كان دور توفيق ظاظا هو صديق من أصدقاء محمود بك والذي لعب دوره عبد الله عكاشة ، وكانت هناك مسرحية ـ القضية المشهورة ـ لعب فيها توفيق ظاظا دور ـ الدوق دوبتر ـ ، و ـ معارك الحياة ـ وكان الدور الذي لعبه هو المسجل ـ سيشرين ـ وتوزعت أدوار ـ المرأة الفاتنة ـ وكان نصيبه فيها ـ السير ماتشم ـ ، ويدل هذا على أن والد الدكتور حسن ظاظا كان يحترف التمثيل رغم حصوله على ليسانس جغرافيا من بريطانيا، ولقد قرأت المقالة بالصدفة ولكن المرض كان يشتد على الدكتور ظاظا في الفترة الأخيرة ، فكتب كشكول واتبعه بآخر ، وتوقف بعدها لفترة طويلة وحاول أن يعود من جديد إلى سابق عهده في كتابات خفيفة إلا أن المرض داهمه بشكل يستحيل معه التوائم مع التفكير في الكتابة ، ولعل تلك الفترة التي سبقت وفاته كانت تنصب على اللقاءات الصحفية واذكر منها شاب في مقتبل العمر كان يدرس العبرية ، وكانت له محاولات كمندوب لمجلة اليقظة الكويتية ، واستطاع

الحصـول عـلى مـادة تكفـي عدديـن متتاليـين وايضـا حديـث لمجلـة ـ العـالم ـ وهـي مجلـة تصـدر مـن لبنـان ثـم كان يعـد لبحـث مطـول لمجلـة الفيصـل حـول أنبيـاء الكـذب في إسرائيـل .

## هاتف الأحد

لا يمكـن تصـور معنـى الوقـت بالنسـبة للدكتـور حسـن ظاظـا خاصـة بـين الثامنـة والتاسـعة مـن مسـاء يـوم الأحـد مـن كل أسـبوع بعـد الإنتهـاء مـن كتابـة الكشـكول ، وتجهيـزه للصحيفـة حـين يـأتي آدم منـدوب الصحيفـة لتوصيلـة للاسـتاذ سـعد الحميديـن ، وربمـا يـأتي صبـاح الأثنـين وفي حالـة تعـذر وصولـه أقـوم أنـا بتلـك المهمـة بمصاحبة الدكتـور كنـوع للترفيـه والخـروج مـن المنـزل ، المهـم أن يـوم الأحـد بـين الثامنـة والتاسـعة هـو موعـده مـع اتصـال الأهـل بـه ، وقـد تتوتـر أعصابـه إذا تأخـر الإتصـال قليـلا رغـم أن قـد يعقـب بالقـول أنهـم ربمـا يتصلـون بالغـد ، أو أن زينـب لديهـا مشـغوليات واختبـارات ويبحـث لهـم عـن الأعـذار ، فهـو يحبهـم بجنـون خاصـة زينـب التـي هـي قطعـة منـه ، ويقـول عنهـا أنهـا (بنـت جدعـة) جـداً ، وكثـير مـن الأحيـان يتعجـب كيـف أنهـا وأخيهـا رغـم أنهـم مـن (بطـن) واحـدة إلا انـك تجـد زينـب تتميـز بأنهـا الفتـاة الشرقيـة المصريـة التـي تحمـل حضـارات وقيـم الـشرق معهـا في كل مـكان حتـى أنهـا تعمـل بتدريـس اللغـة العربيـة في فرنسـا ، إلى جانـب ممارسـتها للفنـون التشـكيلية ، ورسـوم العديـد مـن القصـص والمطبوعـات ، والكتابـة في الصحـف ، والإهتـمام بالأنديـة الأدبيـة والحركـة الثقافيـة في العديـد مـن الـدول ، وعـلى العكـس ـ مالـك ـ الـذي مـا أن تـراه تشـعر بأنـك تتعامـل مـع ـ جنتـل مـان ـ قليـل الـكلام يهتـم بعملـه ، والـذي يتطلـب منـه الانتقال مـن مدينـة إلى أخـرى في سـيانة الحاسـب الآلي للبنـك المركـزي الفرنـسي ، وهوايتـه هـي التحليـق في الجـو فهـو يعشـق الطـيران ، ( مالـك ده

خواجـه إنمـا زينـب دي بنـت بلـد كأنهـا مولـودة في المدبـح ) .
وقـد هاتفـت مالـك والتقيـت الاخـت زينـب ووجدتهـا بنفـس وصـف والدهـا واسـعة الثقافـة أديبـة وروائيـة وفنـان تشـكيلية مـن طـراز ممتـاز ، واثقـة مـن خطواتهـا وتجربتهـا في الحيـاة ، كـما تتميـز بالوضـوح والصراحـة ، عنيـدة لا تتنـازل عـن رأيهـا ، وقـد ذكرتنـي أكـثر مـن مـرة بقصـة واحـد مـن أجدادهـا (راسـه ناشـفه) أي صلـب الـرأي ، وكنـت سـمعت ذات القصـة مـن والدهـا ، عندمـا أصر واحـد مـن أجـداده عـلى أن تقطيـع البطيـخ يتـم بالمقـص ، فقالـوا لـه لا بـل بالسـكين ، فـأصر عـلى عنـاده وان البطيـخ لا يتـم تقطيعـه إلا بالمقـص ، ومـع اسـتمرار هـذا العنـاد ارادوا ارغامـه عـلى التنـازل والرضـوخ للـرأي الجمعـي وإلا سـيلقون بـه إلى قـاع النهـر ليمـوت غريقـا ، فلـم يبـالي ، فقامـوا فعـلا بالقـاءه في المـاء فاسـتمر رافعـا يـده قبـل الغـرق وهـو يشـيرإلى أن القطـع هـو بالمقـص ، حتـى أختفـى كامـل الجسـد ولم يطفـوا سـوى أصبعـين كان يحركهـما بنفـس حركـة المقـص .
في يـوم الأحـد كنـت تشـعر بالدكتـور ظاظـا وهـو يتحـدث إلى زوجتـه برشـاقة اللغـة الفرنسـية تجـري عـلى لسـانه دونمـا توقـف ، أو البحـث عـن كلمـة ، وكان حديثـه يـدور حـول أخبـار الاسـبوع كلـه ، وكأنـه ينقـل لهـم صـورة كاملـة للأحـداث بـكل التفاصيـل ، أمـا إذا كان المتحـدث هـو مالـك فـلا تقـل الوتـيرة مـن الجديـة وتشـعر كأنـه يتحـدث إلى والـده وليـس إلى ولـده ، وكنـت استشـعر قيمـة هـذا الإتصـال والحـوار رغـم عـدم إجـادتي للفرنسـية ، هـذا إذا تجاوزنـا الترجمـة التـي كانـت تتـم بعـد كل اتصـال كحـوار جديـد يجمعنـا ، فـإذا كانـت المتحدثـة هـي زينـب أكـون في بعـض الأحيـان طرفـا في الحـوار ، وهـي بالطبـع

متمكنـة مـن اللغـة العربيـة .

في الفـترة الأخـيرة مـن حياتـه ـ يرحمـه اللـه ـ كان شـديد القلـق والحزن لمعرفتـه بتدهـور صحـة زوجتـه ورفيقـة حياتـه مـن خـلال الآم مـرض السرطـان ، ولم يكـن يـدري أن المـوت لا يبحـث عـن مـرضى وأنـه قـد سـبقها إليـه .

# في عُجّالة

عندما تم الإعداد لإقامة معهد اللغات الشرقية والحضارة العربية والإسلامية ضمن جامعة مالطا ، وقع الاختيار على الدكتور ظاظا كمدير مؤسس لهذا المعهد ، وقامت جامعة مالطا بمخاطبة معظم الجامعات العربية ، وكذلك جامعة الدول العربية من أجل تقديم الدعم المادي والأدبي لهذا المعهد الناشيء ، وطال إنتظار الدكتور ظاظا لبدء العمل بعد هذه الإجتماعات والدراسات والرحلات للبحث عن الكتب والمناهج ، وحينما شعر أن الفكرة وراء المعهد كانت من أجل جمع المال لا أكثر ، هنا فكر في لقاء رئيس جمهورية مالطا ليضع بين يديه الخطوات التي تمت ، وتلك التي لم تتم ، وكان قد قام بأبلاغ الصحف بأن السيد الرئيس يستقبل مدير معهد اللغات الشرقية ، والخبر موجود بالصحف ، وكان القصد من وراء هذا الأمر الاعتذار عن العمل مع جو لا تتضح معالمه ، وفي خلال وجوده بالقاهرة أتصلت به جامعة الرياض لعام دراسي واحد ، وما كان يظن أنه سيبقى هذه الفترة التي أمتدت حتى بعد خروجه إلى التقاعد سواء في مصر أو حتى من جامعة الملك سعود ، وهنا كان دور مؤسسة الملك فيصل للبحوث الإسلامية الدور الإنساني النبيل متمثلاً في شخص سمو الأمير خالد الفيصل بإصدار أمر كريم ببقاء الدكتور حسن ظاظا مستشاراً بمركز الملك فيصل وتحديداً في مجلة الفيصل والتي جمعت الكثير من البحوث والمقالات المتخصصة في دراسة الفكر الديني اليهودي تحت بعض الإشارات والعناوين منها على سبيل

المثـال ـ اليهـود في اسـبانيا المسـلمة ـ الإصلاحيـون اليهـود .. وصخـرة التلمـود ـ الفقـه الإسـلامي وشريعـة اليهـود ـ المسيح المنتظـر جرثومـة الصهيونيـة ـ الـشرع اليهـودي والمـرأة ـ الفكـر الإسرائيـلي والتطـرف ـ ، والكثـير الكثـير مـن تلـك البحـوث التـي يجـب أن يهتـم بهـا بالتجميـع والبحـث واسـتخلاص المعلومـات القيمـة بهـا ، والتـي تتشـوق إليهـا المكتبـات العربيـة ، وضمـن الأعـمال التـي كان يعتـز بهـا أيضـاً قيامـه بكتابـة الجـزء الخـاص بالصهيونيـة بالموسـوعة العربيـة ، ولكـن ملحمته الكـبرى والتـي أطلـق عليهـا سـيرة البهلـول والتـي كان ينتظـر اكتـمال عناصرهـا لتأخـذ طريقهـا إلى المطابـع غـير أن المشـاهد الأخـيرة مـن الأحـداث ، والضعـف الشـديد للنظـر والأمـل في الحيـاة كلهـا عوامـل وقفـت دون كتابـة الفصـل الأخـير مـن ملحمـة البهلـول .

انتظـر طويـلا مقدمـة السيرة والتـي وعـد بهـا صديقـه العزيـز الدكتور منصـور الحازمـي والـذي كان يكـن لـه حبـاً صافيـاً لا ينافسـه فيه سـوى حـب الدكتـور راشـد المبـارك الأخ والصديـق الـذي لمست بنفسـي شـدة الألم لفـراق ظاظـا ، ولا يحتـاج الدكتـور راشـد ـ يرحمـه اللـه ـ هـذه الشـهادة منـي ، واحبـاب الدكتـور ظاظـا كثـيرون أذكـر منهـم ـ الدكتـور عبـد اللـه العثيمـين والدكتـور عبـد الرحمـن الأنصـاري ـ الدكتـور احمد الضبيـب ـ الشـاعر اللـواء محمـد حسـن العمـري ـ الدكتـور يعقـوب الباحسـين ـ الاسـتاذ مبـارك الـدوسري ـ الأديـب والشـاعر عبـد اللـه بـن أدريـس ـ الأسـتاذ الشـاعر سـعد الحميديـن ـ الدكتـور يحيـى بـن جنيـد ـ الأسـتاذ أنيـس منصـور ـ الدكتور شـكري عياد ـ الاسـتاذ محمد الشـدي ، وزمـلاء مجلـة الفيصـل جميعهـم وأخـص بالذكـر منهـم الدكتـور زيـد الحسـين والاسـتاذ محمـد حيـان حافـظ والاسـتاذ حسـين حسـن حسـين

ويوسـف حجـاج وكذلـك الاسـتاذ عمـر حكمـي ، وكان يفـرح لزيارتهـم لـه ، وخوفـا مـن الوقـوع في خطـأ السـهو والنسـيان أقـول ان جمهـور القـراء ممـن كانـوا ينتظـرون الكشـكول صبـاح كل يـوم أحـد كان لهـم موعـد مـع هـذا الحبيـب الـذي أحبهـم بصـدق واحـترام لعقولهـم ، وكتـب مـن أجلهـم عصـارة أفـكاره وتجاربـه .

أخيرا

كانـت لـه كلـمات خاصـه يرصـع بهـا سـطور مقالاتـه منهـا : ( عطـاط نطـاط ـ تسـوخ وتـدوخ ـ الهيـاط الميـاط ـ رغـماً سـنفحاً ـ حذلقـة وفيهقـة ـ مهاتـرة ومشـاجرة ـ هـذا مـاذا ـ ذلـك كذلـك ـ تأتـأ وفأفـأ ـ التسـلق والتملـق ـ شـذر مـذر ـ الصالـح والطالـح ـ فقـد النقـد ـ اشـمخرت واسـتكبرت ـ الشمشـوني الشـمعوني .

هـذا جهـد المحـب ، وآمـل أن لا يضعنـي القـارىء العزيـز أنبوبـاً في مختـبر أو عدسـة في مجهـر ، واللـه مـن وراء القصـد .

## الدكتور حسن ظاظا ودوره المهم في حياتي

كان ومازال الدكتور حسن ظاظا علامة فارقة في حياتي وتكويني الفكري خاصة إذا تحدثنا عن الجانب الفني ، كيف لا وهو استاذ تاريخ الفنون وخريج قسم الترميم من متحف اللوفر والحاصل على دكتوراة الدولة من جامعة السربون في اللغات الشرقية ، كان التعرف على هذا العالم الجليل والمفكر النادر عن طريق الصدفة ، وذلك عندما كنت أراه وسط لفيف من الأدباء والأكاديميين والمشاهير في صالة فندق الرياض أو الانتركونتننتال وكل ظني أنه من ضيوف مهرجان الجنادرية ممن اراهم في الجوار ولا احاول الدخول إلى عالمهم إلا في حالات نادرة وخاصة جدا كالأديب السوداني الكبير الطيب صالح أو الشاعر العراقي يحيى السماوي أو المفكر المغربي التازي والصحفي المصري مصطفى بكري أو الشيخ الموريتاني الإمام أحمد ولد لمرابط ، أو الأديب الليبي أبراهيم الكوني وهكذا .

كان من اللافت أيضا ان د. ظاظا قد تقدم بالعمر وصحته تبدو ضعيفة جدا ويحتاج لمعاونة شخص عند التحرك من مكان لآخر ، والفرصة لمعرفة بعض التفاصيل عن د. ظاظا جاءت بالمصادفة البحتة ، وذلك عندما غادر الزميل نبيل الحداد مخرج مجلة كلية الملك خالد العسكرية للمملكة والاستقرار في مصر ، وكان بيننا صديق مشترك هو الدكتور رستم عشري المصري الذي درس الفن بأمريكا واقام بها ، ثم حضر للعمل بالسعودية وله أبنة تعمل مذيعة للأخبار بالقناة السعودية الثانية و كان يتصل بعض الأحيان بالدكتور ظاظا وعندما طلبت منه تحديد موعد التقي فيه بهذا

الرمـز العلمـي الكبـير وعـدني بالمحاولـة للإتصـال وتحديـد موعـدا مناسـبا ومـرت الأيـام دون جـدوى حتـى كانـت رسـالة نبيـل الحـداد الـذي حملهـا لاسـتاذه مـن مـصر الزميـل عـادل حمـودة ، واتصـل بي حمـودة لمصاحبتـه عنـد تسـليم الخطـاب وهـو لا يعلـم مـدى شـوقي لمعرفـة الرجـل ، ذهبنـا سـوية للعنـوان المـدون عـلى ظـرف الخطـاب .
لقـاء ودود بسـيط تنـاول الرسـالة في هـدوء وبعـد قرائتهـا سـأل عنـا ومـن نحـن ، فيـما كان عـادل يشـبه سـاعي البريـد الـذي أدى مهمتـه ويريـد الإنـصراف والعـودة لمنزلـه وتنتهـي قصتـه عنـد هـذا اللقـاء ، ولكنـي تشـبثت باللحظـة التـي جاءتنـي عـلى خطـاب مـن ذهـب وتمنيـت عـلى الدكتـور ان يمنحنـي مـن وقتـه بـين فـترة واخرى ويسـمح لي بالحضـور إليـه وتزويـدي بالعلـم والمعرفـة عـن تاريـخ الفـن ، وكأن الـكلام عـن الفـن وافـق هـواه وانسـجمت لـه روحـه ، وبـدأ في حـوار عـن علاقتـه بالفـن ومعهـد متحـف اللوفـر وطريقـة الالتحـاق بـه وشروط التعليـم والتدريـب مـن خلالـه خاصـة قسـم الترميـم ، ثـم نصحنـي بالإطـلاع عـلى بعـض الكتـب والمراجـع في هـذا المجـال وانـه لا مانـع عنـده مـن الحضـور ولكـن بعـد الاتصـال الهاتفـي للتأكـد مـن أنـه غـير مشـغول خاصـة مـن خـلال المقـال الاسـبوعي (الكشـكول) لصحيفـة الريـاض .
بعدهـا تحلحلـت الأمـور وامتـدت الجسـور بيننـا خاصـة بعـد إنشـغال الاسـتاذ مبـارك الـدوسري الـذي كان احـد طلابـه بجامعـة الملـك سـعود ويقـوم عـلى تلبيـة بعـض طلباتـه ولكـن يبـدو انـه انشـغل بعملـه وأولاده وتقلصـت مواعيـده فيـما كان الموعـد الأهـم بالنسـبة للدكتـور هـو حضـور منـدوب مـن صحيفـة الريـاض كل يـوم اثنـين بشـكل

اسـبوعي لاسـتلام المقـال الـذي تعـذر توصيلـه بنفسـه عـن طريـق مبـارك وعرضـت عليـه أن أتـولى هـذا الأمـر لتكـون فرصـة جيـدة لـيرى الطريـق ويتنسـم بعـض الهـواء الطلـق ، وتكـررت الزيـارة لصحيفـة الريـاض بشـكل اسـبوعي وتعرفـت مـن خـلال د. ظاظـا عـلى الشـاعر والكاتـب السـعودي الاسـتاذ سـعد الحميديـن المسـؤول عـن الصفحـة الأدبيــة ، كــما أن د . ظاظــا كان يعمــل مستشــارا لمركــز البحــوث والدراسـات الإسـلامية بمؤسسـة الملـك فيصـل التـي ترسـل لـه الأبحـاث والدراسـات ليضـع ملاحظاتـه ورأيـه التحكيمـي بهـا كمرجعيـة علميـة لدراســات مقارنــة الأديــان وخاصــة الدراســات الباحثــة في الديــن اليهـودي ، كـما يحـرص عـلى كتابـة المقـال الشـهري لمجلـة الفيصـل مـما تعـددت معـه المعـارف مـن خـلال وجـودي معـه وقـد شـاهدت د. زيـد الحسـين بتكليفاتـه المسـتمرة لظاظـا لوضـع الخطـوط العريضة او تحديـد خطـوات سـير حديـث مـن الأحاديـث لمؤتمـر يشـارك مـن خلالـه الحسـين داخـل أو خـارج المملكـة للدرجـة التـي كان د. ظاظـا (أبـو مالـك) يشـكو مـن التعـب الجسـدي والعقـلي والبحثـي لخدمـة د. زيـد الـذي اصبـح عضـوا في مجلـس الشـورى والـذي كان مختلفـا عـن كل مـن عرفهـم مـن خـلال مجلـة الفيصـل بدايـة مـن علـوي طـه الصـافي وحتـى الأكاديمـي الكبـير الاسـتاذ الدكتـور يحيـى بـن جنيـد ، الاسـتاذ علـوي لم اراه ولم اتعـرف عليـه إلا مـن خـلال الأسـتاذ يوسـف خطـاط مجلـة الفيصـل الـذي كلفنـي بعمـل رسـومات لقصـص اطفـال مـن تأليـف الاسـتاذ علـوي الصـافي وبمشـاركة الرسـام المـصري سـمير ظريـف ، وشـهادة للحـق وللتاريـخ إن د. يحيـى بـن جنيـد مـن أرق واخلـص واشـد حبـا للنـاس وللعلـم مـن عـدد كبـير ممـن عرفـت مـن

الطوواويـس الذيـن يتيهـون فخـرا بمـا لا يملكـون ، وكان وجـودي بجـوار د . ظاظـا لخمـس سـنوات متتابعـة قـد كشـف لي الكثـير ممـن يتسـترون وراء أقنعـة الـدال الكاذبـة والشـهادات الوهميـة والعلـوم والبحـوث والمبـاديء التـي لا تتجـاوز حناجرهـم .

معرفتـي بالدكتـور ظاظـا واقـترابي مـن عالمـه اعـاد ترتيـب قناعـاتي وافـكاري لنحـو أكـثر ميـلا للبحـث والمعرفـة ، كان يحدثنـي دائمـا عـن أصـل الـكلام واختـلاف المعـاني بـين الترجمـة وأصـل اللغـة وكل أمنيـات حياتـه أن يسـاعد في كتابـة قامـوس تأصيـلي في الكثـير مـن الكلـمات التـي تـتردد بـين اللغـات ، كانـت طريقتـه في كتابـة المقـال مرهقـة جـدا كمـن يتحـرك فـوق الأشـواك حـافي القدمين ولذلـك كان الكشـكول يحمل رأي الديـن للشـيخ عبـد السـلام وبعـض الهسـتريا وفحـش الخطـاب لبهلـول ، ويمكـن الرجـوع لدراسـة الماجسـتير التـي قدمهـا كأطروحـة عـن ( أدب المقالـة عنـد حسـن ظاظـا ) في الفـترة بـين عـام ١٩٨٥إلى ١٩٩٩م للباحـث الأسـتاذ سـعد بـن عبـد العزيـز المطـوع ، فقـد اسـتغرق الباحـث في كشـف بعـض الشـخصيات في مجمـل المقـالات التـي اجـرى عليهـا البحـث ، وتعـدد المعـارف لـدى الدكتـور ظاظـا تجعـل مجلسـه دائمـا مجلـس حـوار علمـي في اللغـة والدين والـتراث والتاريخ والسياسـة والفـن والطـب ولذلـك كان مجلسـه يجمـع كل مـن د. عبـد الرحمـن الوهيبـي ، د. اسـامة قريـش ، د. محمـد منـير مذكـور ، لـواء شرطـة الشـاعر محمـد حسـن عمـري ، د. راشـد المبارك ، د. سـلطان القحطـاني ، د. فيصـل بـن عبـد اللـه القصيمـي ، الأمـير خالـد بـن عبـد اللـه بـن مسـاعد ، د. صابـر طعيمـة ومجموعـة مـن الأكـراد والفلسـطينيين المقيمـين بالريـاض والنـاشر السـوري صاحـب دار القلـم بدمشـق ودار

العلـوم الثقافيـة ببـيروت وبعـض الثقـلاء وتواصـل وتراسـل ومكالمـات وبعـض الزيـارات مـن د. صفـاء ابوطالـب

حســن ظاظـا الأكاديمــي والشـاعر والفقيــه اللغــوي الــذي يتحــدث العربيـة والعبريـة والفرنسـية والانجليزيـة والكرديـة والإيطاليـة وقليـل مـن السـواحلية كان يدهشـني بتطور تفكـيره وقراءاتـه في اللغة العبرية رغـم انقطاعـه عـن التواصـل المبـاشر بمسـتخدمي هـذه اللغـة (التـي وصفهـا باللغـة الميتـه) سـنوات طويلـة معتمـدا فقـط عـلى الراديـو ، ولا يقطـع بـرأي مـن الآراء إلا ويسـبق كلامـه عـن المصـدر الـذي حصـل منـه عـلى المعلومـات ، رجـل يعشـق الكتـاب والقـراءة عـلى ضعـف بنيانـه الجسـدي الـذي وهـن تحـت وطـأة المـرض ، ويحمـل فـوق جسـده رأسـا قـادرة عـلى التحليـل المنطقـي لأصعـب المشـاكل الجدليـة ، سـافر لكثـير مـن دول العـالم ايـران واليابـان و معظـم الـدول الأوروبيـة والمغـرب وفلسـطين و لبنـان و السـعودية ومالطـا ، تـرك للعـالم مؤلفاتـه ودراسـاته حـول القسـم في الديانـة اليهوديـة ، واللسـان والإنسـان ، لـه ابـن وابنـة وتـزوج ثـلاث مـرات ومـات وحيـدا.

لكــن موتــه كان فاجعــة للمجتمــع الثقــافي العلمــي والفنــي والأدبي ونقلـت الخـبر وكالـة الأنبـاء واس حيـث افـردت مؤسسـة اليمامـة الصحفيـة باسـمها واسـم اسرة تحريـر جريـدة الرياض ومجلـة اليمامـة وجريـدة الريـاض ديـلي وكتـاب الريـاض نصـف صفحـة عـزاء إلى أسرة ظاظـا بالداخـل والخـارج والمهتمـين بالشـؤون التعليميـة والثقافيـة والفكريـة في وفاتـه ـ يرحمـه اللـه ـ ، ونصف صفحة أخـرى لنقل تعازي أصدقـاؤه ومحبيـه لـكل مـن الدكتـورة خيريـة السـقاف ، والقـاص فهـد العتيـق ، والناقـد عبـد اللـه الفيفـي ، والناقـد د . عبـد اللـه المعيقـل

، والقاص جبير المليحان ، كما كتبت جريدة عكاظ عن رحيله ( فاجعة للعلم والثقافة وعزاؤنا في مؤلفاته ) حيث استطلع كل من : احمد عايل فقيهي (جدة) وعبد الرحمن الشمراني (الرياض) آراء بعض المثقفين ومنهم معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر الذي اعرب حزنه بقوله : من عرف الدكتور ظاظا فسوف يشعر أنه فقد بلا شك جوهرة من جواهر الأدب ، وجوهرة من جواهر العلم ، وجوهرة من جواهر الخلق ومكانه سوف يبقى خاليا في صفوف الأدباء ، كما أشار الكاتب عبد الله الحصين إلى الدور الكبير الذي ساهم به الراحل في كشف الصهيونية العالمية وركيزتها اسرائيل معربا عن أمنيته أن يهتم المثقفون والمفكرون العرب بقراءة آثاره ومؤلفاته والقاء الضوء عليها، وكذلك السفير المصري بالمملكة حلمي عبد الحميد بدر الذي نقل تعازية لأسرة الفقيد ، ويذكر الدكتور منصور الحازمي أن ظاظا يعتبر من العلماء في حقل الدراسات العبرية والتاريخ اليهودي القديم والحديث ، والدكتور عبد المحسن القحطاني يرى أنه كان يمثل العالم الشامل حتى أنك تحتار في تخصصه من موسوعيته ، واعتبر الكاتب عبد الرزاق محمد حمزة أن وفاة ظاظا خسارة لهذة الأمة وخسارة للفكر العربي والثقافة العربية والإسلامية ، وكتبت الدكتورة صفاء أبو طالب كلمة بعنوان (إلى روح فارس القلم والبلاغة د. حسن ظاظا) ، وقال الكاتب الكبير محسن باروم لقد اختطف الموت فارسا من فرسان الكلمة .

كما خصص الدكتور راشد المبارك في عاموده بثقافة اليوم بجريدة الرياض الحديث عن دكتور ظاظا بعنوان ـ حسن ظاظا : الشعاع

الـذي انطفـأ ـ منوهـا عـن خصالـة الإنسـانية والعلميـة مختتـما بقولـه : « عـاش حسـن ظاظـا ثمانيـة عقـود وتقلـب في عـدة وظائـف علميـة وتعليميــة في عــدة اقطــار ، وكان في كل ذلــك موســوعة متحركــة ، ولكنـه فيـما غـشي مـن بـلاد واتصـل بـه مـن دوائـر التعليـم ورجـال الجامعـات ، لم تكـن الاسـتفادة منـه بقـدر مـا يحمـل ، والأخـذ عنـه موازيـاً لمـا بـه يحيـط ، ولـو كان الفقيـد أو مثلـه في مـكان آخـر لـكان لـه شـأن غـير شـأنه ومكانـة غـير مكانتـه .

فيـما كان يحمـل هـم تلـك اللحظـة مـن الفـراق الاسـتاذ الكاتـب فالـح العمـرة الـذي تنـاول سـيرة ظاظـا ومناقبـه في عنـوان ( الدكتـور حســن ظاظــا محاولــة تعريــف ) وكان يدعــو إلى الإســتفادة مــن وجـوده بتسـليط الضـوء عـلى مـا يملـك مـن علـم ومعرفـة ووضـع ذلـك عـلى خارطـة وسـائل الإعـلام مـن إذاعـة وتليفزيـون ، كـما ودع الدكتـور سـلطان بـن سـعد القحطـاني استاذه الدكتـور ظاظـا في مقـال طويـل يحمـل العنـوان الحميـم (في ذمـة اللـه أبـا مالـك) ، وشـاركه نفـس المشـاعر الاسـتاذ حمـود عبـد الرحمـن العبيـد بمقـال تعريفـي يحمـل عنـوان ـ إلى الضيـاء الـذي احتجـب ـ وكذلـك قصيـدة ضمـن ابياتهـا : الدمـع يـذرف والقلـوب لظـى .. والحـزن خيـم غـير منقـول .. أودى فـما يجـدي الأسى ومـضى .. عـف الضمـير بلـون إكليـل ، كـما رثـاه محبـوه بمجلـة الحـرس الوطنـي في موجـز عـن أعمالـه بعنـوان ( تفكيـك الفكـر الصهيـوني أبـرز كتاباتـه الدكتـور حسـن ظاظـا إلى رحمـة اللـه تعـالى ) ، وفي عمـوده ـ أضـواء ـ بجريـدة الجزيـرة كتـب الاسـتاذ جـاسر عبـد العزيـز الجـاسر (رحـل موسـوعة العـرب العبريـة) ، أمـا الدكتـور مـرزوق بـن صنيتـان بـن تنبـاك في مقالـه الشـامل عـن

جوانب إنسانية في حياة الدكتور ورفقة بعض أصدقاؤه ومحبيه وعلى رأسهم الدكتور راشد المبارك عندما عنون المقال بـ ( حسن ظاظا في المقام والرحيل ) فقد ذكر صحبتي للدكتور حتى اللحظات الأخيرة يشاركني في ذلك كل من الدكتور اسامة قريش والدكتور فيصل القصيمي رغم وجود العديد من تلاميذ واصدقاء الدكتور وقد قدمت لهم في كتابي (كشكول الكشكول) كما شاركت بعض الاساتذة في كلمة حملت العنوان ( الدور الخامس شقة ١٧) وانا استشهد بقصيدة كتب عنها الدكتور ظاظا للشاعر الإنجليزي شيلي لفكرة الموت : تموت لذائذنا أولا / وفي أثرهن يموت الأمل / وتهوى مخاوفنا بعدها / سداداً لدين المنى والوجل / ويبقى التراب ينادي التراب / ويمضي به حين يأتي الأجل ، في نفس الصفحة يوم ١٨ ابريل ١٩٩٩ بالعدد ١١٢٥٥ من جريدة الرياض ومجاورا لكلمة من الدكتور عبد الله ثقفان والشاعر الاستاذ محمد حسن العمري بمقال وقصيدة وكلمة من المخرج السينمائي الكبير عبد الله المحيسن .

لم يكن الاهتمام الذي اولته جريدة الرياض لتأبين ظاظا بمستغرب لأنه أحبها وخصها بكشكوله الذي امتد لأكثر من سبعة عشر عاما ، وقد خصصت الجريدة صفحة كاملة تستعرض بعض من صور الفقيد وآخر كتاباته ورصد لمؤلفاته القيمة الذي خص فيها الفكر الصهيوني وفضحه وعنوان بالبنط العريض لكلمة له في محاضرة عندما قال في كلية الآداب بجامعة الملك سعود : الصهيونية لم تبدأ بحرب أو بنك .. ولكن بكتاب ، وكتب الدكتور محمود الربداوي مقال في جريدة الشرق الأوسط يحمل عنوان : (سفر ضخم من

المعرفـة ـ كان بـين ظاظـا والجاحـظ أكـثر مـن صفـة مشـتركة) واعـاد الدكتـور منصـور الحازمـي بـذات الجريـدة قصيـدة كان قـد نظمهـا في مناسـبة سـابقة للدكتـور ظاظـا عنـد بلوغـه السـبعون عامـا ، وبعـد آن وارى الجثـمان الـثرى باسـبوعين كتـب الدكتـور منصـور الحازمـي مرثيـة تقطـر حزنـا ، وتقـترب مـن النصـف صفحـة في ثقافـة اليـوم بالريـاض تحـت عنـوان (ظاظـا: الكشـكول والبهلـول) .

فيـما كانـت هنـاك مقالـة مهمـة قبـل خمـس سـنوات مـن وفـاة الدكتـور ظاظـا كتبهـا بمجلـة الـشرق الاسـتاذ حسـن محمـد الشـيخ في بـاب ابعـاد ثقافيـة بالعـدد ٧١٧ وبتاريـخ ٨ينايـر ١٩٩٤ بعنـوان (اليهـود ود . ظاظـا) عـن اهميـة وجـود امثـال الدكتـور في كشـف زيـف الصهيونيـة ، بعـد عـام مـن وفاتـه يرحمـه اللـه احتفـى المكتـب الثقـافي المـصري بالريـاض بذكـرى وفاتـه بامسـية متنوعـة عـن تجربـة الدكتـور قمـت باسـتعراض اهـم انتاجـه البحثـي والعلمـي والفكـري والأدبي وشـاركني بكلمـة الاسـتاذ الدكتـور شـعبان سـلام اسـتاذ اللغـات الشرقيـة بجامعـة الملـك سـعود ، ولم اكتفـي بهـذا واجتهـدت في وضـع كتـب عنـه يرحمـه اللـه بعنـوان (كشـكول الكشـكول ) ، واتبعـت ذلـك بعـدة مقـالات منهـا مقـال ـ د. حسـن ظاظـا كـما عرفتـه ونـشر بمجلـة الحـرس الوطنـي في اغسـطس ٢٠٠١م ، ومحـاضرة بأحاديـة المبـارك وأخـرى بالملتقـى الثقـافي .

أ. د. حسن ظاظا

الاسم : حسن محمد توفيق ظاظا (١٩١٩ ـ ١٩٩٩م) .

تاريـخ ومحـل الميـلاد : ٢٣ يونيـه ١٩١٩م بالقاهـرة ـ الـدرب الأحمـر ـ مـصر .

الشهادات والدراسات :

١ ـ ليسانس ممتازة في اللغة العربية

٢ ـ ماجستير في الأدب العـبري مـن الجامعـة العبريـة بأورشـاليم القدس في ٢٩ فبراير ١٩٤٤م.

٣ ـ دبلـوم معهـد الدراسـات العليـا قسـم العلـوم اللغويـة والتاريخيـة في المدرسـة العليـا لدراسـة التاريـخ والحضـارات واللغـات ـ جامعـة باريـس ـ فرنسـا ١٩٤٩م .

٤ ـ دبلوم مدرسة اللغات الشرقية فرع اللهجات المغربية ١٩٥٢م

٥ ـ دبلـوم قسـم الدولـة النظامـي العـالي في تاريـخ الفنـون التشـكيلية وعلـم المتاحـف ـ عـام ١٩٥٣م ـ مـن مدرسـة متحـف اللوفـر .

٦ ـ دكتـوراة الدولـة في الآثـار والأديـان والحضـارات ، مـن جامعـة السربـون بباريـس عـام ١٩٥٧م.



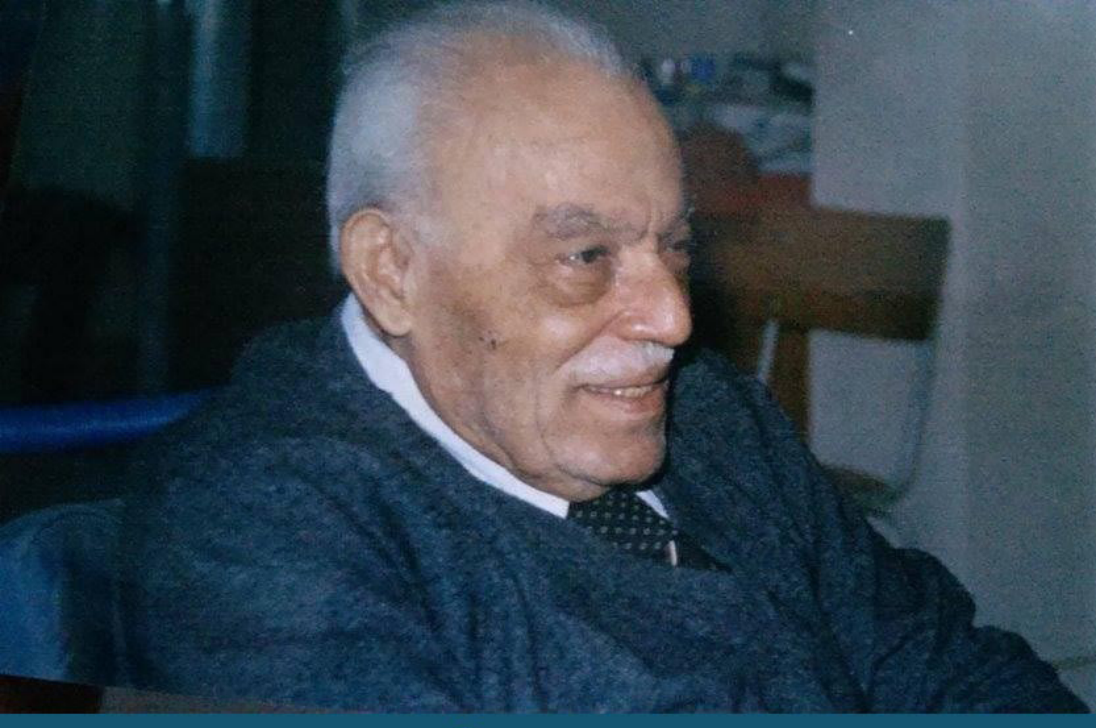
اللغات التي يتقنها ك

العربيـة ، الإنجليزيـة ، العبريـة ، الفرنسـية ، السريانيـة ، الفارسـية ، الكرديـة ، الحبشـية .

الجامعات التي قام بالتدريس فيها :

جامعـة الإسكندرية ، جامعـة عـين شـمس ، جامعـة القاهـرة ، جامعـة

الأزهـر ـ كليـة اللغـات والترجمـة ـ ، معهـد الدراسـات الخاصـة بجامعـة الـدول العربيـة ، جامعـة محمـد الخامـس بالربـاط بالإضافـة إلى فرعهـا في مدينـة فـاس ، جامعـة بـيروت العربيـة ، مديـر مؤسـس لمعهـد اللغـات الشرقيـة والحضـارة العربيـة والإسـلامية في جامعـة مالطـا ، اسـتاذ زائـر لجامعـة الخرطـوم بالسـودان ، أسـتاذ زائـر لجامعة الموصـل والبـصرة وبغـداد بالعـراق ، جامعـة الملـك سـعود ، المستشـار والمحكـم الأول لمعظـم مـا يكتـب عـن إسرائيـل بمركـز الملـك فيصـل للبحـوث والدراسـات الإسـلامية ،



« تعرف أنا كانت ظروفي الحياتية
في منتهى الصعوبة في فرنسا ،
التي وصلت إليها على ظهر بارجة
حربية تابعة للاسطول البريطاني
اسمها ـ اسكانيا ـ وكان علىّ
واجبات كثيرة تجاه عملي وعلمي
وأسرتي في مصر ، وزوجتي التي
تعيش معي في فرنسا ، وكل ما
يصل لدى من راتب شأن أي
طالب مبتعث لا يكفي لأي
واحدة من تلك الأمور ».

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق المصرية : ٢٠٠١/١٣٢٧٥
الترقيم الدولي I.S.B.N 977-17-0309-9